الفصـــل الثالث

البيئة والاخلاق

لقد حاولنا فى الفصل السابق أن نبين العوامل التى أخذت فى تكوين الخلق المصرى فى عصرنا الحديث . ثم حاولنا ايضاً أن ندل على تلك المواضع من هذه البيئة التى يجب أن يجرى عليها التغيير والتبديل أو بعبارة أخرى يجب أن نصلح البيئة المنزلية والمدرسية حتى يتسنى للولد أن يشترك اشتراكا فعليا وفعالا فى الحياة الاجتماعية المصرية

وبالطبع يستحيل على أى انسان أن يبحث جميع العوامل التى تذهب فى بناء الاخلاق بحثا مستوفيا كاملا . لانه علاوة على أن هذا أمر مستحيل من الوجهة المادية فهو ايضاً مستحيل من الوجهة العلمية . وذلك لاننا لا نستطيع أن نعلم على التدقيق ماهى جميع تلك العوامل . فالكائن الانسانى معقد التركيب جداً . ثم اننا فى الواقع لا ندرى على التحقيق ما هى حدود البيئة . وليس يمكن بسط هذين العاملين بسهولة

وعلى أى حال فنحن مزمعون أن نبحث باسهاب بعض الاختبارات التى تساعد على تنمية الاخلاق فى الفرد . فان تبين من سياق الكلام أن ما اخترناه من تلك الاختبارات منفصل عن بعضه بعيد الشبه أو لا علاقة بينها جميعاً فيشفع فى هذا التفكك الظاهرى أن ما يربطها جميعاً هو الولد المصرى بميزاته الدينية والاجتماعية والتعليمية . وبعبارة أخرى ليس المرجع فيما نقول هو علاقة الاختبارات ببعض أو ترتيبها وتبويبها بل هو الولد نفسه . ثم ليلاحظ القارىء ايضاً اننا لا نزمع حصر كل هذه الاختبارات بل سوف نتخير منها تلك التى يكون لها أثر ظاهر فى تكوينه . نقول اننا سوف نبحث فى بعض هذه الظواهر وسوف نحاول أن ندل على ما يجب أن يعمل فيها ما استطعنا الى ذلك سبيلا

وتستطيع ان شئت ان تعتبر هذا الفصل ملحقاً للفصل السابق ومكملا له مع العلم ان بعض ما سنذكره قد يظهر فى بعض الأحوال غير مقتصر على الوالد المصرى بل يتعداه الى الأولاد جميعاً فى كل البلاد الأخرى . أو بعبارة أخرى قد يظهر انه عام ينطلق على غير أولاد مصر . وفى هذه الحالة يحسن بنا ان ننبه مقدماً الى ان مانحتاجه نحن كمصريين ليس يعدو ان يكون حاجة عالمية عامة فى كثير من الحالات . فنحن كباقى أهل الأرض فى حاجة الى الخلق المتين

وسوف نحاول ان نكون عمليين فى هذا الفصل مع مافى الواقع العملى من التعسف الذى ليس منه بد . والتعسف هو ضريبة العملية أوشر ليس منه محيص لمن يريد ان يوضح الأمور توضيحاً لايحتمل الشك . ولكننا لنا شفيع فى هذا التعسف فى اننا نرغب ان نفيد ولسنا نريد ان نظهر براعة فى الاحتياط . وعلى حد قول الاستاذين شابمان وكونتس ان « التعسف هو الثمن الذى يجب دفعه للصراحة والوضوح »

مكان الاسرة من التربية الآخلاقية

عندما يتكلم انسان فى مكان الاسرة من حياة الطفل وتأثيرها فى تكوين شخصيته وأخلاقه يشعر بقلق واضطراب . وذلك لانه مقرر أو فى حكم المقرر ان هذه قضية مفروغ منها . والبدء والاعادة فى أمثال هذا الموضوع تكرار ممل ومبتذل . ولكن رغماً عن ان العالم المتمدين قد أخذ يوجه جهوده لحل هذه المعضلة نكاد نحن فى مصر لانشعر بوجودها أصلا ان لم يكن من الوجهة النظرية فمن الوجهة العملية المحضة . ويخيل الينا ان هذه الظاهرة الاجتماعية لم يكن لها من مفكرينا الالتفات الكافى التى هى أهل له . قد يجوز ان وجهتها النشوئية والانثروبولوجية لم تغفل كل الاغفال . اما من وجهتها العملية فتكاد تكون غفلا . ولذلك فان الانسان يشعر بأنه يجب عليه ان ينوه باقتضاب عن أثر الاسرة فى بناء الاخلاق

لقد أجمع العلماء على انه ليس لظاهرة من الظواهر الاجتماعية ماللبيت من الاثر فى تكوين الافراد . فالبيت هو معمل للرجال كما انه معمل للجبناء والمجرمين والانذال . وهو من أهم العوامل التى أوجدت الناس فى حالتهم الراهنة ان لم يكن

أهمها على الاطلاق . و كما قال وولتر فسك (١) « بعض العوامل الاخرى مهمة . ولكن البيت أهمها جميعاً . بعضها قوية فعالة . ولكن البيت الفاضل الكريم القوى لن يقهر على أمره فى تكوين الاخلاق »

ولو أخذنا برأى الاستاذ (أوشيا) من جامعة هارفارد بأن « معظم ميول الأطفال نحو الناس والمعاهد والنظم الاجتماعية والعادات المحيطة بهم تتكون فى العاشرة أو الحادية عشر من عمرهم » فقد حق علينا أن نقول أن الناس كما هم فى حالتهم الراهنة رجالا ونساء ، هم فى الواقع ونفس الامر من صنع البيوت . ومع أنه ليس مأموناً من الوجهة العلمية أن نزعم أن الأطفال يتم تكوينهم فى العاشرة أو الحادية عشر — لأنه فى الواقع لايتم تكوين انسان الا فى نهاية أجله — نقول مع أنه لايتحتم علينا من الوجهة العلمية أن نأخذ بهذا المذهب الا أنه يكاد يكون من المحقق أن فى مثل هذه السن يكون الجزء الأكبر من أساسات الشخصية بجملتها والأخلاق على الخصوص قدفرغ من وضعه . ففى مثل هذه السن أو مايقرب منها بكثير أو قليل تتكون ميول الفرد نحو الظواهر الاجتماعية حوله بشكل يدل على البقاء والثبوت . وذلك لأن التلبيات النفسية وردود الأفعال يكون قد تم الارتباط بينها و بين تلك الظواهر . وعلى نوع هذا الارتباط يتوقف ميل الفرد لأن يدعو لصالح تلك الظواهر أو لغير صالحها . أو بعبارة أخرى تكون ميول الطفل قد أخذت تسير على منوال يتفق أولا مع ما يجده حوله من الحياة الاجتماعية . « متى تساوت العوامل الأخرى فان مثل هذه الميول تأخذ فى الثبات والاستمرار والتأصل . « فلماذا اذن لايهتم الوالدون الاهتمام كله لهذه التربية الأولية . تلك التربية التى تتحكم فى مستقبل الطفل وتوجه مصيره . » كما يتساءل روفيوس جونز ؟

عمل البيت

لقد اتفق العلماء على أن للبيت وظائف عدة أهمها ثلاث . وهذه وظائف

---

(1) " Parents and Their Problems,, by The National Congress of Mothers Vol 1V P. 283

أساسية فى تكوين الجماعات البشرية . فهو اولا الوسط الوحيد المعترف به من الشرائع لتحقيق الغرائز الجنسية . وثانياً — وهذه نتيجة للاولى — أن المنزل هو الاداة الوحيدة لحفظ الحياة الانسانية من الانقراض بالتناسل المشروع . وثالثاً يكاد البيت أن يكون النظام الاجتماعى الوحيد لتربية الأطفال . ويحسن بنا أن نمر بوظيفتيه الأوليين مر الكرام خصوصاً ونحن ليس لنا معهما شأن . وأما وظيفته الثالثة فهى كل ما يعنينا فى هذا المجال

يخيل الينا ان اهم وظائف البيت بلا مراء هى الاعتناء بالاطفال بعد ان يولدوا لانه قبل ان يتكون الجنين فى بطن امه يكون ملكاً لابويه ان شاءا اوجداه وان ارادا تركاه حيث هو فى عالم الغيب . والترك اوعدمه ليس يهم الجماعة البشرية كثيراً الا متى صار هذا سنة يتبعها الجميع فتؤثر فى الجماعة من حيث ندورة النسل فانقراض النوع او من حيث كثرته بشكل ينزل بمستوى العيش والحياة فى العالم . وحتى مع ذلك يظهر لنا ان العالم لايهتم لماسيكون ان خطأ او صوابا . ولن يتدخل الامتى كان النسل حقيقة واقعة اى لما يولد الطفل . ففى هذه الحالة فقط تدعى الجماعة ان لها حقوقاً على الاحياء وان لها مصالح فيهم تسهر عليها وترعاها . فمن هذه الوجهة اذن تكون أهم وظيفة للعائلة فى نظرنا هى رعاية الطفل بعد ان يولد ويتحقق وجوده المستقل وهذا مايدعونا الى الزعم ان تلك الوظيفة بالذات هى اهم الوظائف على الاطلاق وذلك لمساسها بكيان النوع وتطوره مساساً مباشراً ذا أثر مستمر ومستديم . ولكنه يظهر من الواقع الملموس ان البيت فى مصر يكاد يفشل فشلا ذريعا فى تأدية تلك الوظيفة بالذات

فالاغلب ان حاجات الطفل المادية تتوفر له بقدر ما تسمح به طاقة والديه الاقتصادية وان كان الجهل فى معظم الحالات يفسد عليهما نواياهما الحسنة . وعلى كل فهما يقدمان له غذاء ومأوى ومع ما فى طريقة خدماتهما للطفل من المآخذ الكثيرة الا انه ليس لانسان ان يتهمهما بعدم الرغبة فى توفير كل الاسباب للاطفال لان الرغبة متوفرة للوالدين وعدمها ليس امراً طبيعياً . ومتى تساوت جميع العوامل فاننا نستطيع أن نقرر أن العائلة هى خير من يقوم على حاجات الأطفال المادية بشرط

أن تكون العوامل الاقتصادية مساعدة على ذلك. ومع كل هذا فاننا ندعو الى وضع تشريع يحمى الاطفال فى سنيهم الأولى مما قد ينجم عن استحالة بقاء الأب والأم فى كنف واحد

ولكن حاجات الطفل المادية ليست كل ما ننتظر من الوالدين . فالعيش ليس كل مستلزمات النفس البشرية . بل يلزمها النماء والتقدم فى الشخصية والاخلاق وعلى العائلة أن تقدم للطفل ما يساعده على أن يصير رجلا . وسواء أرادت العائلة أم لم ترد فانها قوام على رجال الدنيا ونسائه . وهنا يتضح لنا مقدار فشل العائلة المصرية فى تأدية هذا الواجب . فهى عاجزة والنتاج ردىء . ومن ثم صارت الجماعة مريضة

البيت هو أول من يستقبل الطفل فى هذه الدنيا . وهو أول من يقدم له ذلك التراث الاجتماعى الذى تسلمناه ممن غبر . لا بل هو أول من يعلم الطفل أن يؤدى ما يعنى بأصوات متغيرة وأول من يعلمه الكلام . فالعادات والعرف والظواهر الاجتماعية المختلفة يتلقاها الطفل عن والديه أولا . وهناك يتصل بالجماعة البشرية أول اتصال . وهناك يتعامل مع الانسانية بالأخذ والعطاء . وهنالك ايضاً يرى الجماعة البشرية فى أول مراحلها وعلى أبسط صورها . وليس من ينكر أن الأسرة هى الوحدة الاولى للجماعة . أو النموذج المصغر القابل للفهم والادراك . ففى البيت يتعلم الطفل أول ما يتعلم عن الخطأ والصواب . والحسن والقبيح . وهنالك ايضاً يتلقى معنى الملكية الفردية والحكومة والواجبات والحقوق والمميزات

وبالاختصار نستطيع أن نقول أن البيت هو أول معمل يجتازه الطفل ليخرج منه الى الجماعة البشرية مستكمل شرائط الأنسانية أو فاقدها كل الفقد . فهو المصنع الذى يصطنع من ذلك الحيوان الصغير عضواً نافعاً للجماعة . أو يفشل فى ذلك فشلا تعود مضاره على العائلة والجماعة والطفل جميعاً

ومع كل هذا تدرج الجماعة البشرية على الزعم الظاهرى أو المستور أن العائلة فى حالتها الراهنة كفء لأداء كل هذه الواجبات . فلم يخطر فى بالها أن تتساءل عما اذا كان الأب والأم جديرين بالاضطلاع بهذه المسئولية . ليست تتريث لتتأكد

هل الثقة التى تضعها فى الأب والأم هى فى محلها أم هى ثقة عمياء تكاد تكون تواكلا يضر ولا يفيد . فالاولاد هم أفراد فى الجماعة كما هم فلذات اكباد الوالدين فلها حق رعاية مصالحهم كما أن ذلك من حق الآباء . فلماذا اذاً لاتتنبه الجماعة لواجباتها ؟ وتلتفت الى هؤلاء الاطفال فتأخذ بيدهم فى نموهم وتقدمهم وتأخذ بيد والديهم فى القيام على صوالحهم لماذا تترك هذا الواجب للآباء كل الترك ؟ كأن الوالدين لا يخطئون . أو كأنه مفروض فيهم التنزه عن العيوب . أو كأن رعاية الاطفال حق الهى منحه الله فقط للآباء والامهات . أو كأن الطبيعة أخذت على عاتقها تفهيم الوالدين ما يحسن بهم أن يفعلوه مع اطفالهم وقصرت هذه المعرفة عليهم دون غيرهم . يقول شابمان وكونتس (١) فى هذا الصدد « نحن درجنا على الزعم أن الفتاة التى ليس لها حظ يذكر من الادراك والفهم تصبح فى لحظة وبطريقة تكاد تكون سحرية حائزة على القدر الكافى من العلم فتعتنى بوليدها ليس من الناحية المادية فحسب بل من الناحية العقلية والاخلاقية ايضاً » وكل هذا الانقلاب الخارق للعادة ليس لشىء سوى انها وضعت وليداً

كأنه يكفى الأم أن تضع الوليد لتصير اهلا للقيام على اخلاقه وميوله وشخصيته فما دامت قد حبتها الطبيعة بالولد فلا بد وأن تكون قد حبتها ايضاً بالقدرة على تربيته والقيام على جميع مصالحه . وتنسى الجماعة أو تتناسى أن القدرة على الانتاج امر يتساوى فيه البله والعته والمجانين . وأنه لا خلاص للانسانية الا بتدخلها بين الوالدة ووليدها لصالح الولد والأم والجماعة جميعاً

وفى الحق أن البيت فى حالته الراهنة يكاد يكون ضربة على نمو الاولاد الاخلاقى والاجتماعى . فالتعاويذ والسحر يكادان يستبدلان من الطب والعلم . ويكاد الجهل والخرافات تغطى على العقل والبصيرة فى التصرف مع الاولاد . فيجب والحالة هذه أن نفعل شيئا لسلامة الجماعة المصرية . نستطيع على الأقل أن نتحقق من كفاية الشاب والشابة عند الزواج لان يعتنيا بأبدان الاولاد وعقولهم وأخلاقهم

علاقة الاب بالام

يتوقف نمو الاولاد الاخلاقى على مقدار حظ الوالدين من الذكاء كما ذكرنا

(1) Chapman and Counts "Principles of Education,, P. 226

آنفاً . ثم انه يتوقف أيضاً على العلاقة الكائنة بين الاب والام كما سنبين الآن . وقد يظهر غريباً لأول وهلة اذا نحن قلنا ان خير الاولاد المادى من حيث النمو الجثمانى السريع يتوقف أيضاً على جو العائلة . ومع انه يمكن الاخذ بهذه النظرية والدفاع عنها بسهولة إلا اننا نمر بها مراً سريعاً ونتركها لمن يريد استقصائها . أما نمو الاولاد الاخلاقى بالاخص فهذا مايتحتم له جو صحو رائق فى البيت . فمتى حل السـلام فى عائلة ومتى استتب التعاون والحب الاكيد والتفاهم بين الاب والام فلا بد من توافر أسباب النمو الاخلاقى للذرية متى تساوت العوامل الاخرى . لانه فى مقدور الاطفال أيضاً ان يرتبوا النتائج . ولبساطتهم وسلامة طويتهم يعملون فى الحال بمقتضى تلك النتائج . وليس ترتيبهم لها يتبع طرق المنطق والتفكير بل يكاد يكون الهاماً . لابل نستطيع ان نقول مجازاً انهم يستنشقون آراء احد والديهم فى الاخر . ثم يترسمون خطاهم من دون تفكير لانه فى عرفهم ان سلوك والديهم ليس مادة للتفكير والتأمل ولكنه مثال يحتذى للتو والساعة من غير مابحث أو تروٍ . فى عرفهم أن الأب يتحدث هكذا والأم كذلك ليس لدوافع قد تغيب عن الأطفال أو قد لاتغيب بل هما يعملان ذلك والسلام وما على الأطفال الا أن يعملوا مثلهما لأن طبيعة الأشياء تتطلب ذلك

ولسنا نقصد فيما نقصد بالعلاقة بين الاب والأم أن أحدهما يقدس الآخر ذلك التقديس الظاهرى الفارغ . بل نعنى شيئاً أكثر من ذلك وأبعد غوراً لأن ذلك الاحترام المصطنع ــ احترام الرجل للمرأة لأنها امرأة ولأنه رجل والسلام ــ قد أخذ يتقلص ظله فى بعض الجماعات المتمدينة . وأول من أخذ يمجه هو المرأة نفسها التى يقدسونها من جهة ومن الجهة الأخرى يضنون عليها بحقوقها فى الانتخابات . فهى على هذا مقدسة . وهى أيضاً لاتفهم وكل هذا فى الوقت الواحد وحسنا فعلت بطلة طاغور عندما أخذ الرجل يتملقها بقوله « أنت مقدسة . أنت الهة » فاجابت « كلا . كلا . لست مقدسة . ولست الهة . وانما أنا انسان . أنا امرأة »

وفى الحق أن المرأة الغربية وخصوصاً الامريكية أخذت تمج ذلك الضرب من

الاحترام المصطنع . فهى تريد الآن أن تعامل كانسان عادى ليس له من المميزات شىء على من عداه . تريد أن تتساوى بالرجل فى الحقوق وفى الواجبات . ليس نظرياً فقط بل عملياً أيضاً . حقاً أن الشقة لازالت بعيدة علينا نحن المصريين من هذه الناحية . ويكاد الانسان يجزم أننا سوف لانصل هنالك مطلقاً بغير حرب ضروس بين الرجعيين والمجددين منا

ونحن لسنا نرمى من هذه الدعوة الى مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق السياسية أو غير الحقوق السياسية لسنا ندعو المصريات الى أن يغمضن عيونهن ويتبعن اخواتهن الغربيات فى كل مايذهبن اليه . لأن مثل هذه الدعوة سواء كانت صائبة أو خاطئة ليس لها محل فى هذه الرسالة . ولكن كل مانرمى اليه هو أن يأخذ المصريون بيد المرأة لتصير فى مصاف الناس من حيث الاحترام لشخصيتها واعطائها حقوقها على العموم . وليس يعنى هذا حقوقاً مفردة بذاتها على التخصيص . وسواء عندنا فى هذا البحث أن تنال هذا أو ذاك من أنواع الحقوق التى هى الآن وقف على الرجال . وانما ندعو الى أن يكون لها يد ظاهرة فى شئوننا العامة وفى أحوالنا الاجتماعية

فيرى من هذا أننا لانرمى الى تقديس المرأة أو تملقها أو ماشاكل ذلك . ثم لانرمى أيضاً الى دعوة معينة لها . بل كل مانذهب اليه هو أن تعامل فى بيئتنا معاملة تختلف عما يجرى الآن . كأن يكون لها فى البيت من الاحترام ماللرجل . ولها من الحرية ما يساعدها على أن تنمو فى شخصيتها وتستوفى الاحترام الواجب لها . فلا يعود الأطفال يشعرون أنها مستعبدة للرجل أو أقل منه بأى وجه من الوجوه . بل مكملة له ومتممة لوجوده . وانها الركن الاساسى فى العائلة

ثم أن هذه العلاقة بين الآب والأم تستدعى أيضاً أن يتعاونا فيما بينهما فى كل ما يتعلق بتربية الطفل . هذا التعاون يكاد يكون منعدماً فى بلادنا . لأنه كثيراً مايتشاحنان ويقتتلان أو يتجاذبان النفوذ على الطفل . فترى أن أحدهما يحاول جهده لأن يقصى الآخر عن أن يكون له على الطفل يد أو قول . وهذا بالطبع من الأخطاء التى لاتحتاج الى كبير عناء لأظهار مافيها من خطر . لأنه لايحسن أن يترك

الولد لأحدهما بمفرده . بل يجب بقدر المستطاع أن يتأملا سوية فيما يجب أن يتبع حياله عندما تعرض لهما مسألة . ولا يجب أن يختلفا عليه فى بعض الأمور كأن تريد الأم أن تفعل معه شيئاً فيعارض الأب أو بالعكس . لأن هذا علاوة على أنه يباعد الهوة بينهما ، يساعد الطفل على أن يتمادى فيما هو آخذ به . ففى مثل هذه الحالة التى يختلف فيها الوالدان يميل الطفل الى أن ينسب الظلم والتعسف لمن يعارضه منهما . وأيضاً يتسمم فكره من نحو أحدهما ويوغل فى التسمم اذا أوغل هذا فى الخلف . ثم ينتج أيضاً أن الطفل يفعل مايعلم أنه لايحسن به أن يفعله . يفعل ذلك اتكالا على حماية أحد الوالدين

وأيضاً يجب أن لاتترك تربية الطفل للوالد بمفرده كما تفعل بعض العائلات . لأن مثل هذا الترك يحرج العلائق بين الاب والابن . فيصير الاب فى نظر ابنه كالبوليس للجرم لا صلة بينهما الا عن طريق التجاذب والاختلاف فى الميول والرغبات . وبعد فليس الاب قاضياً أو حاكما ومنفذاً للقوانين . بل هو أب قبل كل شىء . يجب أن يتقابل مع ابنه فى غير موضع للتوبيخ والعقاب كل هذه أمور ظاهرة لا تحتاج الى شرح أو تفصيل كثير . ويمكن تجنب الاخطار التى تنجم عنها بقليل من العقل والروية من ناحية الابوين

مركز الطفل فى العائلة

يؤكد الدكتور بنزيون ليبير فى كتابه (الطفل والبيت) امراً اغفله الاباء كثيراً . الا وهو أن الطفل ليس متاعاً أو سلعه تمتلكه العائلة . ويوغل الدكتور فى هذه الحقيقة ويتكىء عليها كثيراً بحيث يشرف على التطرف . أوغل فيها بشكل دعا معارضيه الى رميه بأنه يريد أن يكون الابوان ملكا للطفل يلهو بهما ويلعب ولكن رغماً عن هذا الاتهام الذى يصمه به معارضوه نرى نحن اننا فى حاجة الى توكيده والحافه والى اكثر من هذا التوكيد وذاك الالحاف . نحن فى مصر اكثر من غيرنا فى حاجة لأن نفهم أن الطفل ليس متاعاً للوالدين يلهوان به ويتمتعان

الحق أن الطبيعة لم ترزق الناس أولاداً لتسرهم أو تسليهم أو تخفف عنهم مشاق العيش وتكاليف الحياة . ومع ذلك فقد درجت الناس على جعل الاطفال فى هذا

الوضع . وضع المهرجين الذين خلقوا ليتحركوا وينشطوا ويتعلموا فيقهقه الاباء اعجاباً وسروراً . أما اذا أراد الطفل أن يفعل ما يريد . اذا رغب فى أن يسر نفسه وليس الكبار . اذا شعر أن له ايضاً ميولا يريد أن يتفقدها ويستجيب لها . فلا . انه فى هذه الحالة يكون عاصياً . وليس يعدم الاباء حيلة فى معاقبته على عصيانه وليس المؤلف مبالغاً فى هذا أو متعسفاً فقد حصل أمامه بحرفه . واليك التفصيل

ذهب الكاتب لزيارة احدى العائلات الراقية . وكان لها ابن فى الثالثة أو الرابعة من عمره . وقد حدث لسوء حظ هذا الطفل أو لحسنه أن كان قد تعلم أن يقلد بعض الرجال الذين اعتادوا زيارة هذه العائلة تقليداً مضحكاً فكهاً يدل فى الواقع على انه قوى الملاحظة . أراد الاب أن يرى الكاتب مهارة ابنه فى هذا الضرب من المحاكاة . ولكن الولد كان فى دنيا غير هذه الدنيا . كان منهمكا فى تنضيد العابه وصفها الى بعض . وكان هذا يستغرق كل ما يملك من انتباه وحس . اراده الوالد على أن يترك كل هذه ليهرج أمام الكبار ويسرهم ويضحكهم ويسليهم . وأراد الولد امراً بخلاف هذا . فضل أن يظل بقرب العابه ليسر نفسه ويشبع اهواءه وميوله فما كان من الوالد الا أن عاقبه على ذلك . ولما لامه الكاتب اجاب بقوله « لا . اسكت . يحسن بالاطفال أن يطيعوا اذ يؤمرون » فقال الكاتب « كلا كلا . يحسن بهم أن لا يكونوا سوى الات صماء فى أيدى الآباء لا يفعلون غير ما يريدونهم أن يفعلوا »

هذا نوع من التملك للأطفال لايترك لهم مجالا لينموا ويكبروا . كأنهم ماخلقوا إلا ليسروا عن نفوسنا مللها وتبرمها بالحياة . اما الاطفال أنفسهم فيجب ان لايكون لهم رغائب واهواء يسعون وراءها . ثم ان هناك ضرباً آخر من التملك يفسد على الاطفال حياتهم وينغص عليهم عيشهم . وذلك هو محبة والديهم لهم . وفى الحق ان المحبة التى هى أفضل العواطف الانسانية وأسماها والتى تعتبر بحق من الغايات الكونية القصوى . هذه المحبة تكاد فى حالات كثيرة تنقلب الى حب التملك الذى هو فى آخر مداه نوع من حب النفس . وظاهرة هذا النوع من المحبة تتبين من علاقة الوالدين بأولادهم فى حالات كثيرة

فما دامت الام مثلا ترغب فى تقبيل ولدها دلالة على حبها له يجب ان يكون الولد راغباً فى ذلك أيضاً فى نفس الوقت . ومتى شعرت الام انها تميل الى التعبير عن ذلك الحب بقبلة يجب ان يتقبل الطفل ذلك بنفس رضية متهللة فرحة فى جميع الأوقات . وبالاختصار يصر الوالدون على حب الاطفال والتعبير عن ذلك الحب بالطريقة التى تعجبهم هم بغض النظر عن ميول الطفل فى ذلك الوقت وبغض النظر عن ظرفه الذى يعيش فيه . نحن لانعترض على المحبة الوالدية ولكنا نعترض على زعم الوالدين انه متى شعروا بضرورة شيء أو برغبتهم فيه يتبع ذلك حتما ان يشعر الاطفال مثل هذا الشيء

ثم ان محبة الوالدين للأولاد تكون فى كثير من الحالات أو فى أغلبها عبارة عن عاطفة صرفة ليس للعقل دخل فيها . والعاطفة من غير العقل عمياء وجاهلة ومتقلبة ومندفعة وشديدة الخطر . ولا يستطيع الانسان ان يوجهها وجهة معلومة بل نستطيع ان نقول انها هى التى توجه الانسان الى حيث تريد . فيصير مطية لها تقوده بزمام الى حيث لايمكنه ان يذهب فيما لو كان ينقاد للعقل . ولأن العاطفة قلب فهى لاتستقر على حال وتجدها تتحول من النقيض الى النقيض فى لمح البصر . فبعد ان كانت رقيقة كالنسيم تراها كالبركان ينفجر من هنا ومن هنالك وتصيب ماتصيب ومن تصيب من غير مبالاة أو ترو

ولكم من مرة ترى الأم تسيل رقة وحناناً وعطفاً على وليدها فى وقت ما . ثم تثور عليه متى جن جنونها وتنهال عليه رفصاً ولكزاً . وذلك لأنها تتبع الغريزة والفطرة فقط فى حبها وفى غضبها . فهى تتبع الغريزة والفطرة فقط فى كلتا الحالتين . وليست بمستطيعة ان تفعل غير هذا اذا ما اسلست قيادها كله للعاطفة من دون العقل والفكر . نقول ان هذا النوع من المحبة غريزى غيرمتأثر بحكم العقل والفكر . وهو مدعاة الى الأسف الشديد . وبالطبع لسنا فى حاجة كبيرة الى تبيان مافى هذه الميول من الأخطار على تربية الأولاد الأخلاقية . تقول السيدة تيودور برنى (١) فى هذا الصدد « ينجم عن فكرة ملكية الأطفال كثير من الاخطاء فى تربيتهم .

(1) "Parents and Their Problems,, Vol III P. 119

اما لو تغلبت فكرة الوصاية عليهم على فكرة التملك هذه لأمكن ان ينالوا بعض الاحترام والتقدير الواجبين لهم . ولا ستطاعوا ان يفهموا العدل على وجه أتم وان يتجهزوا لدور الابوة والامومة وحب الوطن . اما فكرة التملك فهى تغدق عليهم العواطف الحسنة حيناً لتنهال عليهم بالعقوبات الشديدة حيناً آخر »

ونستطيع ان نقول ان أغداق العواطف الحسنة حيناً والانهيال بالعقوبات حيناً آخرهما الطريقتان المتبعتان فى مصر فى هذا الزمان . اما القصد والاعتدال فى الاثنين فليس لنا منهما نصيب كبير أوصغير . لسنا نقتصد ونعتدل فى حبنا لاطفالنا أوفى عقابنا لهم على السواء . لسنا نفهم للتوسط معنى . فاما هذا أو ذاك وليس غير

وبينما نحن نتردد فى اتباع الدكتور بنزيون لبير الى آخر شوطه وذلك تبعاً للعرف والعادة أكثر من أى شيء آخر . إلا اننا لانذهب مذهب كثير من العائلات فى بلادنا فى هذا الامر . اننا نميل لان نعتبر الولد حراً أكثر منه ملكا لوالديه أو ماأشبه ذلك . حقاً ان بلادنا ملأى بأمثال استيفينس الذى كتبت عنه دوروثى كانفيلد فى كتابها The Home Maker. وان أنسى لاأنسى ماقاساه استيفينس هذا من خيبة الامل والتعاسة اللذين نتجا عن حب والدته له وغيرتها على صالحه المزعوم . ومع ان أمثال هذه الام كثير إلا اننا لانستطيع ان نزعم انهن لايحببن أطفالهن رغماً عما يقوم فى أذهان الاطفال أنفسهم أمثال استيفينس واضرابه من التنكر لهذه المحبة

حاجة الولد لاحترام شخصيته

ان الولد — والبنت أيضاً — فى حاجة ماسة الى احترام شخصيته . فهو حقيق بالاحترام عندما يتكلم وعندما يسكت ، عندما يسأل وعندما يجيب . وحقه فى هذا الاحترام هو كحق البالغين سواء بسواء . قد يكون كلامه غير ذى معنى فى نظرنا وقد تكون أسئلته فارغة . ولكن هذا الكلام وذاك السؤال هما فى نظره شيء مهم أو معضلة عسيرة الفهم . فهو اذ يتكلم يحاول ان ينال حظه من الامور الاجتماعية . وبالتالى يظل يبنى أخلاقه حجراً على حجر . فالضغط عليه وانتهاره فى مثل هذه الحال لايساعده من هذه الوجهة مطلقاً بل يدفعه الى الفردية المرذولة . أوالى العزلة

التامة عن هذه الدنيا والانكماش الى نفسه فيضيق مستوى خبرته بالجماعة . إما ان يفعل هذا بالذات او يدفعه الانتهار الى الايمان بظلم الحياة وعسفها . وهذا بدوره يدفعه الى التمرد والعصيان . هذا إذا كان الطفل فى الاصل ذا شخصية قوية

ولربما يدفعه الاحتقار والامتهان الى ان يأخذ هذا الامر على انه هو الذى يجب ان يعمل مع الصغار والضعاف . فينتهر بدوره من هم أضعف منه ويحتقرهم ولا يقيم لقولهم وزناً قياساً على مايفعله معه الكبار البالغون . واحتقار الضعفاء والازدراء بهم ليسا من الاخلاق فى شىء . وبخلاف هذا وذاك ألا يدرى الوالدون ان الصغار يشعرون بالاهانة والتحقير عندما يصدمهم الكبار وينتهرونهم قبل ان ينتهوا مما هم فيه ماضون من الحديث ؟ الحق انه ليس فى هـذه المعاملة شىء من الاحترام للصغار . ومع ذلك فلا يزال كثير من العائلات يسلك بازائهم هذا المسلك الخشن كأنه ليس من اللائق بالصغار ان يعبروا عما يجول فى أدمغتهم الصغيرة

ومن الناحية الاخرى ان أسئلة الصغير دليل على تطور قواه العاقلة أو المفكرة فهو يريد ان يرد الاسباب الى مسبباتها أو يكتشف تلك الاسباب اذا لم يكن قد اكتشفها بعد . فاذا لم تكثر أسئلته فى هذا الدور فثمة نقص فى تكوينه العقلى يجب البحث عن علته . يجب عرضه على احد أطباء العقول او الأجسام ان كان لايسأل كثيراً عن طبيعة الكون حوله . فاذا ماأخذ يتساءل كما هى عادة الأطفال ، فمن حقه كما انه من الواجب الذى لامفر منه على الاباء ان يجيبوه . يجب ان يكون الأمر كذلك لعدة أسباب . أولا لأن فى اجابته دليلا على احترام شخصيته . وثانياً لأنه يعوده على احترام نفسه واحترام الآخرين . وثالثاً لأن هذا دليل على تفتح ذهنه للظواهر الطبيعية والاجتماعية التى تحيط به

أثر النقود فى التربية الأخلاقية

يجب أيضا توكيد الاحترام للطفل فى الأمور الاقتصادية . فيجب ان يكون للأطفال نقود خاصة يتصرفون فيها بمحض ارادتهم وبدون تدخل من الوالدين . اما السبب فى عدم الأخذ بهـذا المبدأ على مانظن هو اعتقاد الوالدين ان الأولاد لايدرون كيف يتصرفون فى أموالهم . ولانهم لايدرون تراهم يرتكبون اخطاء

كثيرة . ولكن ليس يصح ان يكون هذا الخطأ داعية لخطأ آخر وهو ان يتدخل الآباء من غير مبرر فى شئون الأولاد . لايجوز ذلك لان الكاتب للآن لم يعثر على بالغ لم يخطىء فى مثل هذا الامر . واننا نشعر اننا أخطأنا كثيراً فى التصرف فى أموالنا ولا نزال نخطىء وسوف نخطىء فى المستقبل أيضا

ان التدخل فى مايجب ان يفعله الابناء بأموالهم وفيما لايجب ان يفعلوه لم ينجم فى الواقع إلا عن عدم احترامنا لهم الاحترام الواجب . ليس السبب الظاهرى وهو جهل الاولاد إلا فى الحقيقة ستاراً يغطى الدافع الحقيقى وهو ان الكبار لايحترمون شخصيات الصغار . وقد يشعرون بهذا وقد لايشعرون . ولكنه على كل حال هو الاصل فى التدخل فى شئون الاطفال . فتارة يكون هذا التدخل على سبيل النصيحة . وتارة يكون على سبيل الامر والنهى . فكيف اذن يتدرب الاطفال على الاضطلاع بالمسؤوليات متى كان هذا هو شأن الوالدين معهم فيما يملكون ؟ كيف ننتظر منهم أن يكونوا رجالا اذا كنا نستهين بحكمهم على الاشياء الى هذا الحد ؟ متى يستطيع الولد اذن أن يعد نفسه لتحمل المسئوليات الجسام فى المستقبل إن كنا نحرمه فى صغره من التحكم فى مثل هذه الامور التافهة ؟ هل يظن الوالدون انهم سيخلدون فى هذه الدنيا وسيبقون بجانب الولد حينما يصير رجلا فيحملون عنه ما هو من واجبه أن يحمل من مسئوليات الحياة ؟ فمن حسن السياسة اذن فى التربية الاخلاقية أن يكون للطفل مجال يتصرف فيه من تلقاء نفسه وبارشاد عقله من غير تدخل من أحد . وكل ما يطلب من البيت فى مثل هذه الاحوال أن يساعده على تفهم الحقائق ثم يتركه لنفسه ليدفع ثمن اخطائه ويبتاع الاختبارات بذلك الثمن التافه . أى بالاخطاء التى سيقع فيها حتما . يقول الاستاذ جورج كو (١) « يجب أن يكون لكل فرد من العائلة الديموقراطية مجال للاقدام . ويكون له وحده فى هذا المجال القول الفصل » ويقول ايضا « أن حرمان الاطفال من حرية الارادة هو بمثابة وضعهم فى طبقه اجتماعية خاصة تحت سقف بيوتهم » ويقصد الأستاذ من ذلك أن من يحرمهم من الاستقلال فى ارادتهم يقيم الفواصل الاجتماعية بينهم وبين

(1) Coe. " Social Theory of Religious Education ,, P. 213

البالغين فى العائلة : ويقول الاستاذ ويجال (١) « يجب أن يعامل الاطفال معاملة الاشخاص فى الهيئة الاجتماعية سواء أكانت هذه الجماعة هى العائلة أم الانسانية عامة . يجب أن يفهم أن لهم حقوق وأن عليهم واجبات . وأن حقوقهم تحترم و يجب أن يؤدوا واجباتهم حق ادائها »

يجب أن تكون حريتهم فى التصرف فى أموالهم مظهراً من مظاهر تلك الحقوق فعلى تلك الحرية يتوقف كثير من فهمهم لحقوقهم وحقوق الآخرين . ثم انهم يتبينون واجباتهم من غلطاتهم التى يقعون فيها . فعلى أى الحالات سواء اخطأوا أم اصابوا فى هذا التصرف فانهم يتعلمون فى كلتا الحالتين . يقول ويليام بايرون فوربوش (٢) فى ختام بحثه فى هذه النقطة . « وبالاختصار اننا نعتقد أن الاستعانة بالنقود فى تربية الاطفال هى من أهم العوامل فى تلك التربية . فيجب على كل أب أن يضع نظاماً اقتصاديا لابنه . ويجب أن يكون هذا النظام قابلا للتعديل والتحوير مع نمو الطفل . ثم يجب أن يطبق هذا النظام بالعدل والتسامح ويأخذ به الأب الى أن يشب الابن عن الطوق » ثم ينصح ايضا انه لا يجوز مطلقا معاقبة الابن باستقطاع جزء من مصروفه بحال من الاحوال . ونحن ايضا نرى رأيه فى هذا الامر

وأكثر من هذا فاننا نرى أن الولد يجب أن يعطى حقه فى الاشتراك فى وضع ميزانية العائلة بأكملها . وبعبارة أخرى ليس من حق الولد فقط أن يتحمل مسئولية التصرف فى ماله بل يجب أن يكون مسئولا أيضاً ولحد محدود عن خير الجماعة التى هو أحد أفرادها . يجب أن يتدرب على الاضطلاع بهذا الواجب الذى سوف يضطر لأن يضطلع به فى المستقبل . وهذا مالانفعله نحن فى بلادنا بوجه عام قد يكون هذا نظام بعض العائلات المبعثرة هنا وهنالك . ولكننا لانعرف عن هذا النوع شيئاً . أما الغالبية المطلقة فلا تعمل شيئا من هذا . وانما نعرف أن الأب هو المسئول الأول والوحيد أيضا عن التصرف فى موارد العائلة تصرف الحاكم المطلق

ولو أخذت العائلات بهذا النظام لاستطاع الأطفال أن يدركوا بالحس المدى

(1) Weigle "The Trainig of Children in the Christian Family,, P. 181

(2) "Parents and Their Problems,, Vol IV P. 187

الذى تصل اليه طاقة العائلة الاقتصادية . يجب أن يشترك الاولاد فى التشاور فى أمور العائلة المالية حتى يتعرفوا حدود مقدرتها الاقتصادية لأنهم فى معظم الأحوال يظنون لجهلهم بالحقائق أن والديهم قادرون على كل شيء من تلك الوجهة ولكن اذا ما كان لهم حظ الاشتراك فى التصرف فى مال العائلة يستطيعون أن يدركوا الحقائق ولا يعودون يثقلون كاهل أهلهم بالطلبات الغير المستطاعة . ثم من الجهة الأخرى لايتبرمون بوالديهم إذا ما عجزوا عن تحقيق كل رغائبهم أو سد كل حاجياتهم ولا يتسرب الشك عندهم الى ان امتناع الوالدين عن تحقيق تلك الرغائب شيء ارادى أو مقصود لذاته ، او أن الوالدين لايرغبون فى الاستجابة لمطاليب أبنائهم تعسفاً والسلام

ويجب أن تضطرد مسئوليات الأولاد فى هذا الأمر باضطراد نموهم فتزداد أموالهم الخاصة حتى تصير جامعة شاملة لكل مطالبهم فى حدود قدرة العائلة الاقتصادية . وعندما يكبرون يجب أن تكون لهم جميع الحقوق والمسئوليات التى تترتب لهم فى هذه السن . فتطلق لهم الحرية فى ابتياع ملابسهم وضروراتهم وما أشبه ويزداد حظهم من المسئوليات الملقاة على عاتقهم من نحو العائلة كلها وبذا ينمو فيهم الشعور بمسؤليتهم عن خير الآخرين وسعادتهم ويشعرون أن اخطاءهم تصيب الجماعة كلها بالاضرار المختلفة وكذلك يشعرون أن حسن سياستهم وتقديرهم وتدبيرهم كانت سبباً من ضمن الأسباب فى تقدم العائلة فى مجموعها . يجب أن نسهل لهم السبل ليشعروا هذا الشعور ليس عن طريق الوعظ والكلام التى يظهر أنها كل بضاعة الوالدين . وهى قلما تأتى بفائدة . بل خير وسيلة لذلك فيما ندرى هى فى تلقينهم كل هذه الامور بالطرق العملية وعن طريق الخبرة والمران الشخصيين وبالحس وبالاشتراك الفعلى فى هذه الامور الاجتماعية

ويخطىء الوالدون كل الخطأ إذ يظنون أن تجنب الاخطاء والغلطات هو كل ما يجب أن يسعوا وراءه لان مثل هذا المطلب مستحيل النيل . وعلاوة على استحالته من الوجهة العملية فليس مما يساعد فى تربية البنين الاخلاقية تلك التربية التى هى بيت القصيد . لأنه يدخل فى مثل هذه التربية عاملان مهمان الا وهما

الخطأ والصواب وكلا هذين الأمرين عامل بعيد الأثر وضرورى فى التربية الحقة وبانعدام أحدهما تفسد التربية من أساسها . ولولا الواحد منهما ما كان الآخر يقول الاستاذ جورج كوCoe فى هذا الصدد «وليس المهم فى الموضوع هو الحصول على النتائج المرضية بسرعة بل المهم هو نماء الشخصيات المستقلة الراغبة فى التعاون فحرية التصرف فى أمواله الخاصة يضع الولد لبنة فى استقلال شخصيته . وبالاشتراك الفعال فى أمور العائلة الاقتصادية والاجتماعية تتقوى فيه الميول الاجتماعية كالتعاون وغيره

الحقوق والواجبات

يقول هودج (١) « إذا قام البيت على خدمة الولد وعمل له كل شىء فالطفل لايعمل شيئاً ويتوقف نموه أو يتعطل الى أقصى حدود التعطيل » فيجب أن لانوغل فى تأكيد حقوق الطفل ايغالا يغطى على واجباته أو يحجبها — تلك الواجبات التى يحسن به أن يكون عارفها ومقدرها حق التقدير . ويحسن بنا أيضاً أن لاننسى أن المسؤليات هى التى تخلق الرجال وليست الحقوق والامتيازات

وأكثر من هذا لايحسن بالولد أن يعمل كل الامور لانها تعود عليه بالفائدة الشخصية فقط . أو بنسبة ماينالـه منها من الفوائد سواء كانت هذه مادية أم معنوية لأن مثل هذه الدوافع فى الواقع منبعثة من غريزة حب الذات . وهذه وان كانت ضرورية فى بعض الاحوال الا أنهـا لايمكن أن تكون الاساس الوحيد فى بناء الاخلاق . ومتى كانت هذه الدواعى للأخلاق أموراً شخصية فقط كان هذا ضد النظرية الصحيحة للفضائل . فهى تتميز كما قلنا بميولها الاجتماعية وليست بالذاتية المحضة . يقول ريتشارد مورس هودج (٢) « هل يستند الولد الى شعوره بذاته ام بالجماعة ؟ فالأمر الأول ذاتى والثانى غيرى . الشعور بالذات فوضوى . لأن الفوضوى هو من ينكر حقوق الجماعة على الفرد . فالطفل يدرج على الميول الفوضوية اذا ماغسل يديه لاحترامه لنفسه فقط . أو اذا كان مؤدبا لدوافع ذاتية فقط أو اذا ما كان صادقا أو أمينا أو رحيما لدوافع ذاتية لاغير . وحتى أن عمل كل هذه الأمور لينمى

(1) Parents and Their Problems. ,, Vol. IV P. 238.
(2) "Parents and Their Problems,, Vol IV P. 235—236

اخلاقه هو أو ليذهب الى الجنة عندما يموت . فمتى كانت الدوافع لمثل هذه الامور فردية ذاتية فالولد فوضوى» وفى الحق اذا لم يكن لنظرية الرجوعيةRecapitulation من عيب سوى انها تستند الى الفردية وتدعو الى توكيد حب الذات فى الولد لكفى ذلك مبرراً لرفضها من وجهة الفضائل والاخلاق . ولكن لحسن الحظ أن هذه النظرية لم تجد من العلم دعائم ترتكز عليها

ولقد وضح الآن من الدراسات العلمية لطبائع الاطفال انهم يستطيعون أن يسلكوا انفسهم فى سلك الميول الاجتماعية الحسنةوالمرغوب فيها كما انهم يستطيعون أن يتشبعوا بالميول الفردية المرذولة . فكلا الامرين ممكنان . ويتوقف نموايهما على العوامل والمؤثرات التى تحيط بالانسان فى طفولته . فمن الممكن اذن أن يتعلموا بالاختبار وبالمران وبالحس أن يقوموا بواجباتهم وبكل الخدم المستطاعة لعائلاتهم وبيوتهم . يقول الاستاذ جورج كو (١) فى هذا « ليس من شىء يوقظ فى الولد محبته لوالديه اكثر من تشجيعه على أن يؤدى لهما الخدمات المتنوعة . وليس ما يعمله الابوان لأجله بمستطيع أن يحرك مكان العطف من قلبه نصف ما يعمله هو من أجلهما » ويقول الاستاذ وبجال (٢) ايضاً . « يشعر الطفل بالسعادة متى سمح له المربون بأن يتحمل بعض المسئوليات الصغيرة وخصوصاً متى شعر بأن اضطلاعه بها هو فى الواقع خدمة يؤديها للعائلة . . . . . فالاطفال يحبون كما انهم موضع الحب من الكبار وهم ايضاً يهتمون للآخرين كما انهم يتقبلون الاهتمام منهم » ويقول جورج وولتر فسك . « والتعاون فى تأدية الاعمال المنزلية هو فى الواقع ونفس الامر تحضير للطفل واعداد له ليتعاون مع الجماعة الكبرى »

والخلاصة أن النماء الخلقى يتوقف على ما يعمله الطفل بنفسه وعلى الروح التى بها يعمل . على هذين جميعاً يتوقف نمو الفضائل فيه لأنه بمقدار ما يخدم الجماعة عن شعور صادق وحب لهذه الجماعة ورغبة فى خدمتها — بهذا المقدار عينه تزداد فيه الميول الاجتماعية وتنمو . فليس اذن الوعظ والكلام سوى وسيلة لربط المعانى

(1) Coe. "Social Theory of Religious Education,, Page 128.

(2) Weigle "The Trainig of Children in The Christian Family,, Page 43.

بالافعال وشرح ما يمكن أن يؤدى اليه النشاط . وهما فى هذه الحالة يدخلان فى باب الادراك والفهم. وأما الخلق فهو السلوك وهو النشاط . ولا يستطيع الطفل أن يتحلى بالاخلاق لمجرد فهمها أو ادراكها بل يلزمه أن يمارسها بالفعل ويمارسها برغبة ولذة . وهذا لا يتأتى الا بعد أن يسهل له الكبار السبل ليفعل ويعمل وينشط وبالاختصار فان وضع بعض المسئوليات على عاتق الولد يقوده الى النمو الاخلاقى علاوة على انه يقوى ربط العائلة ويجعلها وحدة شديدة التماسك

والامثلة على ذلك كثيرة نأخذ منها التعاون . فالتعاون اصطلاح ينطبق على كل مظاهر حياة الفرد الاجتماعية من اندماج فى الجماعة والعمل معها والنشاط من اجلها . وهذا باب يصح أن يكون موضوعاً للدرس المستمر وللبحث المستديم فى المدرسة وفى الكلية والجامعة ويجب أن يكون كذلك. ولكنه لو اقتصر على هذا لصار مجرد نظريات يفهمها الطالب ويدركها . ولكن لا يترتب على فهمها وادراكها أن يتعاون الطالب بالفعل مع الجماعة ، ولكى يكون التعاون عنصراً من اخلاق الفرد يجب أن تتاح له الفرصة فى حياته اليومية ليعمل ذلك بالفعل . والفرص لذلك كثيرة فى المدرسة وفى البيت ففى المدرسة مثلا يستطيع الطلبة التعاون فى كل انواع الالعاب الرياضية وفى انشاء النوادى بأنواعها وفى القيام بالمشاريع الاقتصادية البسيطة . وحتى فى العلم والتحصيل يستطيعون أن يتعاونوا فى البحث وراء الحقائق وتوزيع نواحى البحث على أفراد الفرقة حتى يقوم كل منهم بقسطه فى تنوير الجماعة

العقاب والضغط والرغبة

عندما تتكون الجماعة ويخلد افرادها الى العيش بعضهم الى بعض ينتج عن ذلك تضييق على حرية الافراد فلا يعودون قادرين على أن يتصرفوا فى الامور كما يحلو لهم وبمحض ارادتهم فللجماعة حريتها ايضاً . وبالتالى لها حقوق يجب احترامها كما أن للافراد فيها حريتهم التى لا يجب المساس بها . ومتى تعددت الحريات بهذا الشكل ـــ حريات الافراد وحريات الجماعات ـــ فلا بد وأن تتعارض هذه الحريات جميعا فى اكثر من موضع واحد . وعند تعارضها لا يجب حرمان أى طرف منها كل الحرمان

بل على العكس يجب تنظيمها جميعا تنظيما الغرض منه افساح المجال لكل منها الى النهاية التى تسمح بها الظروف بشرط أن لا تجور احداها على الاخرى

ولكن لايغيبن عن الاذهان أن تنظيم الحريات هذا يجب أن يكون موضع تفكير عميق . فكل الحريات المتعارضة هى حريات ايضاً لها ما لغيرها من الاعتبار ، والتعرض لناحية منها هو تعرض لها فى الصميم . فلا يجب تضييقها الا لاعتبارات من الحرية نفسها . فهى وان كانت محبوبة الا أن توزيعها بالعدل أعود على الجماعات والافراد

الضغط والاجبار Coercion

والآن لنبحث فى الطرق التى تستعمل فى منع الأفراد والجماعات من المغالاة فى حرياتهم — تلك المغالاة التى هى فى الواقع ونفس الأمر اساءة فى استعمالها . فالضغط أو الاجبار هو احد هذه الطرق . فيضغط الفرد لكيما يخضع للجماعة مثلا أو يقلدها ويحاكيها . ولكيما يتنازل عن بعض حرياته من أجل الجماعة أو بعض الأفراد . أو بعبارة أخرى يضغط الفرد كيما يتنازل عن جزء من حريته الشخصية . ويجب أن يفهم المعنى المقصود من الضغط فهو اجبار الفرد بالطرق المعنوية على أن يسلك مسلكا أو يأتى أمراً يتعارض مع مايريد

فالضغط أو الاجبار اذن هو حالة من حالات النفس حيث يضطر الفرد لأن يقبل فى الظاهر نوعاً من السلوك يرفضه ويثور ضده فى قرارات نفسه . ويجب أن يلاحظ أيضاً ان لاموضع للرغبة مطلقاً فى مثل هذه الحالات لأنها منعدمة اصلا والا لما لجأ المربى اليه . فليس الضغط اذن تنظيما للحرية ولكنه فى الواقع خنق لها . وهما اذن ضدان لايجتمعان

والأجبار فى حالتنا نحن البالغين شىء عادى نختبره فى كل حركة من حركاتنا فلا تكاد تمر دقيقة من حياتنا من دون أن نضطر لبعض الأمور . حتى وان كان الاضطرار يكاد لايشعر به ولكن معظم البالغين عندهم قوة التمييز فيخضعون للقوة القاهرة من غير أن تتسمم حياتهم ومن غير أن يلوموا أحداً فى جميع الحالات . لأننا نعرف بالاختبار مدى القوى حوالينا — تلك القوى التى تحول مجرى حياتنا اليومية

و بعض تلك القوى طبيعى ليس لانسان فيه يد . نحن نعلم أن هذا أمر واقعى فنخضع من دون تذمر أو تململ

والأمر بخلاف ذلك مع الأطفال . فالضغط فى نظرهم منسوب الى الافراد — الى الآباء والى الأمهات . ولان خيالهم لم يصل مداه بعد فتراهم يعجزون عن التمييز بين أنواع الاضطرار . لايستطيعون أن يفهموا أن ليس لوالديهم رغبة فى احراجهم لمجرد الاحراج . لايدرون أنه فى طبيعة الوجود لايمكن أن يكون للافراد مايحلوهم من الحريات . وأن للطبيعة نظاما تسير عليه و تكره الناس للسير عليه فليس للفوضى عندها نصيب . لا يشعر الأطفال بهذا وانما نحن ندرج على الزعم أنهم له عارفون و يجب لذ لك أن يخضعوا . نفترض فيهم المعرفة ولا نكلف أنفسنا مشقة الملاينة والاقناع والصبر حتى يرى الأولاد لانفسهم مايجب أن يفعلوه . ومن هذا تنشأ كثير من الصعوبات التى كان من المستطاع تجنبها بقليل من الروية والصبر ومن هذا أيضا يوقر فى اذهان الأطفال أن مجرد الاحراج والاجبار هو مايرغب فيه الوالدون والسلام ويشعرون أن رغباتهم مهملة كل الاهمال فلا وزن لها ولاقيمة . ولنلاحظ أنهم ليسوا فى حاجة إلى الاجبار الا لأن الرغبة منعدمة اصلا من نفوسهم ولانعدامها يتولد فى نفس الطفل كراهية شديدة لمن يرغمه وكراهية أشد للعمل الذى عليه يرغم . والنتيجة لذلك أن الطفل يثور فى قرارات نفسه ويتحين الفرص ليسخر من الفعل نفسه وممن يرغمه على الاتيان به

والولد المضطر لأن يفعل امراً أو لأن يتركه ينسى كل الاعتبارات الأخرى ولا يذكر سوى حقيقة واحدة وهى أنه مضطر وإن الاضطرار آت من اناس كبار بالغين لاحيلة له فى ايقافهم عند حدودهم . ولانهم أكبر منه سنا وأقوى عضلا فهم يحملونه حملا لأن ينزل عند ارادتهم ولأن يفعل مايرغبون فيه هم بغض النظر عما يريده هو

وهذا خطر الاضطرار فقوانين علم النفس أو ما يسمونه بقانون النتيجة The Law of Effect فى هذا العلم ينطبق على هذه الحالة . فينتج من ذلك كراهية للفعل بالذات. لايستطيع الاضطرار أن يوقظ الرغبة . فاذا كان الفعل من مقومات الخلق

انعدم الميل اليه وحب الطفل له . والميل والحب لبعض انواع النشاط هو بالذات ما يجب أن نهتم له من الناحية الاخلاقية . يقول بركسون [١] « أن الاضطرار مضاد لكل شيء ديمقراطي فهو يجعل الانسان تابعاً لارادة خارجة عنه ويعطل من امكانيات الفرد الى اقصى حد ولا يترك مكاناً للشعور بالمسئولية . ذلك الشعور الذى هو بمثابة العامود الفقرى للاخلاق » وعلى هذا نجد انفسنا مضطرين لأن نرفض مبدأ الارغام فى التربية لاننا نجده لايتفق ونظريتنا فى الاخلاق . فاضراره بها اكثر من فوائده . وعلى هذا فاننا نرى انه من المستحسن أن لا يتبع هذا المبدأ الا فى القليل النادر اذا لم يستطع الوالدون أن يتركوه تركا قاطعاً باتاً

يقول الاستاذ ديوى [٢] « لما كانت الغايات ابعد من أن يتفهمها التلاميذ يبحث الانسان عن الوسائل التى يضطرهم بها لأن ينتبهوا لتلك الغايات فيحصل على بعض النتائج . ولكن لما كانت رغبات الاطفال وميولهم لم تعبأ لاداء هذه الواجبات تأخذ هذه الرغبات وتلك الميول فى البحث عن مخارج اخرى » ويقصد ديوى بذلك أن واجب الطفل يصبح فى واد ورغائبه وميوله فى واد آخر . وقديماً قال افلاطون أن المعرفة التى يحصل عليها الانسان عن طريق الاجبار لا تمكث فى العقل طويلا

— وبالاختصار اننا لا نجد أن للاضطرار فائدة كبيرة فى التربية الاخلاقية لابل نرى أن الرغائب والميول تتحول تحت الضغط الى ما من شأنه أن يعطل النمو الاخلاقى والادبى فى الطفل

العقاب

للعقاب مناح كثيرة لا نستطيع بحثها فى هذا المجال فمنها العقاب الانتقامى ومنها التأديبى . وثمة طرق كثيرة له . ومن هذه ما يتناول العقاب البدنى ثم المعنوى ومظهر هذا الاخير الالم النفسانى . ومنها العقاب الاجتماعى ومظهره عدم رضاء الجماعة عن سلوك الفرد

(1) Berkson " Theories of Americanization ,, Page 43

(2) Dewey " Democracy and Education ,, Page 209.

والمؤلف يصرح لأول وهلة انه لا يرى للعقاب الانتقامى فائدة ما وخصوصا مع الاطفال فلسنا نقبل النظرية القائلة أن العدل يتطلب العقاب للعقاب نفسه لسنا نحفل بالزعم أن العدل اعمى لانه اذا كان اعمى كما يزعمون فليس لنا به شأن من وجهة التربية ، حقاً أن الطبيعة تنتقم ممن يخطئون . ليس من ينكر هذا ولكن انتقام الطبيعة ليس يترتب فيه حتما أن يكون من عوامل التربية فى كثير من الحالات فلا يجب أن نتبعها مغمضى العيون

فمثلا تحكم الطبيعة على الطفل الذى يلعب بالنار بالهلاك حرقاً فى بعض الحالات فماذا تعلم هذا الطفل المسكين من الطبيعة ؟ وماذا استفاد ؟ وعقاب مثل هذا قد يجوز أن يكون عدلا من وجهة الانسانية عامة ولكنه ليس عدلا للطفل ذاته. فليس على الوالدين اذن أن يأخذوا فعل الطبيعة قضية مسلمة أو يقلدونها تقليداً اعمى . فهى تنفذ قوانينها بغض النظر عما يحدث للافراد بينما يجب على الوالدين أن يهتموا بما يحدث للاولاد بغض النظر عن مصير القوانين لأن القوانين جعلت للانسان ولم يخلق الانسان للقوانين

والفكرة الدينية فى العقاب تبحث فيه من وجهة نظر الآلهة للخطية . وهى بطبيعة الحال قد نشأت من التأمل فى قوانين الطبيعة التى تعاقب من يعتدى عليها عقاباً سريعاً يقول سترونج فى هذا (١) « وليس الغرض من العقاب اصلاح المذنب أو تأمين الجماعة البشرية أو الحكومات على حياتها ورفاهيتها . ولكن غرضه فى الواقع ونفس الامر هو الانتقام للعدل المطلق ولطبيعة بارىء الكون » اليس هذا الزعم فى الواقع انزالا للآلهة الى مصاف القوى الطبيعية العمياء ؟ اليس هو فى آخر الامر عصباً لأعين الآلهة عن أن ترى ما يكتنف الانسان المسكين من العوامل التى لا قبل له بها ؟ وعلى أى حال فان زعماً كهذا لا يأخذ به ارباب التربية الحديثة فى هذا العصر ولا يقيمون له وزنا فى حسابهم . فلو أخذنا بهذه النظرية فى معاملتنا للاطفال لما كان لها معنى سوى أن الاطفال خلقت لتكون لعبة للاقدار وللآلهة يتسلون بها

وبالاختصار فاننا ندعو الى أن يكون العقاب مفيداً ومانعاً وليس للانتقام بوجه

(1) Strong " Systematic Theology ,, P. 350.

من الوجوه أو للقصاص فى ذاته . ومتى ظهر للوالدين فى حالة بذاتها انه لخير الطفل أن يترك من دون عقاب على ما اقترف فمن واجب الآباء والمربين الا يعاقبوا أو يقتصوا . ولحسن الحظ أن هذا فى الواقع ما أخذت به محاكم الأحداث فى البلاد المتحضرة

ويحسن بالآباء أن يلاحظوا أنه من المستحسن أن يكون العقاب منفصلا عن شخصياتهم بمعنى أنه يجب أن يحرصوا على أن الاطفال لايجمعون بين فكرة العقاب ووالديهم أو مربيهم ، يحسن فى كل الحالات أن يفهم الطفل أن العقاب خارج عن طوق الوالد أو المربى . وليس يهم فى هذا مايجول بخاطر المربى نفسه بل المهم مايفهمه الولد نفسه إن خطأ أو صوابا . وبعبارة أوضح يجب أن يؤخذ بيد الطفل ليرى بنفسه أن العقاب لم يكن سوى نتيجة طبيعية لتصرفه هو كالحال فى احتراق أصبعه عند ما يضعه فى النار . وليس لأن الاب يفعل ذلك بمحض ارادته ورغبته . أما اذا لم يكن ثمة ما يساعد الطفل على أن يفهم أن العقاب هو النتيجة الطبيعية للتصرف فيحسن أن يترك من غير قصاص بالمرة

العقاب البدنى

لسوء الحظ أن هذا الضرب من العقاب مايزال فاشيا فى بلادنا . وقليل جداً هم الذين يفهمون أن لافائدة ترجى من تعذيب أبدان الاطفال بالضرب . وكثيرهم الذين يتبعون هذا النوع من المعاملة كأن هؤلاء يؤمنون أن الاخلاق نتيجة للآلام والخوف أو الرعب والتعذيب البدنى . أوكأن الاخلاق شجرة يجب أن يتعهدها المربى بالفزع فتنمو وتمد أغصانها وتؤتى أكلها . وما دروا أن الخوف فى ذاته آفة من آفات الأخلاق التى تفتك بها فتكا ذريعاً

وكثيرون من مفكرى الأزمان الغابرة يدعون الى مثل هذا الضرب من الفلسفة فسليمان الحكيم دعا اليها كما هو وارد فى التوراة . وأما افلاطون وارسطو فقد لايحجمان عن استخدام الهراوة . ولكن مفكرى العصور الحديثة يترددون كل التردد فى استعمال العصا إن لم يحجموا عن ذلك كل الأحجام يقول بلوتارك « انى اصرح أنه يجب أن يؤخذ بيد الأطفال بالحسنى حتى يستطيعوا أن يتخلقوا

بالأخلاق الفاضلة. ولكن لايجب مطلقاً أن يكون ذلك بالضرب والصفع والمعاملة القاسية » ويقول ثورندايك (١) « قد يجوز أن ينتج خير فيما لو ضربت الطفل على يده فى كل مرة يمدها الى أمر غير مرغوب فيه. قد يكون فى مثل هذا التصرف فائدة ولكن مالا يمكن أن يكون منه فائدة ابداً هو أن تضربه لأنه سود كراسته بالمداد. فمثل هذا خشونة وفظاظة » فى المثل الأول من أمثلة ثورندايك يحصل التداعى بين فكرة الالم والرغبة فى اتيان الأمر المكروه فعندما يشرع الطفل فى ارتكاب المخالفة تنطلق فكرة الالم فى خلايا مخه فى نفس الوقت فيشعر أن لارغبة له فى هذا العمل. ومثل هذه الحالة هى مايسميه النفسيون بالأفعال المنعكسة Conditioned Reflex فليس هو إذن داخلا فى باب العقاب وسنبين ذلك فى فصل تال عندما نتكلم عن قانون الارتباط الشرطى The law of Conditioned reflex

واننا نرى رأى ثورندايك وبلوتارك فى العقاب البدنى من أنه أمر ثقيل وانه من الامور الوحشية. ونقصد من العقاب البدنى الضرب خاصة لانه لوكان للطفل من القوة المادية ومن الشجاعة وعزة النفس لما سمح بالعقاب على هذه الطريقة ولما اجترأ أحد على مثل هذا الأمر. فالضارب إذن يثق مقدما بعجز المضروب عن المقاومة ويستهتر به سواء أكان يشعر بذلك أو لا يشعر به. وفى الواقع هذا هو الحاصل بالذات لاننا يندر أن نرى أحدا يعاقب الأقوياء والشجعان من الأولاد بهذا النوع من العقاب. فالأولاد الذين هم فى دور الفتوة والقوة لايفكر أحد فى ضربهم ليس لأنهم لايستحقون العقاب مطلقا بل لأنه لايجرأ أحد حتى والديهم أن يعذبوهم فى أبدانهم وإن خطر هذا لأحد ببال لرد الولد الاعتداء المادى بمثله كما يحصل فى كثير من الحالات. والحال بخلاف ذلك تماما مع الصغار المساكين فلأنهم تنقصهم القوة تراهم معرضين للكم والصفع والضرب تحت ستار التربية والتأديب والتقويم. والحال أن كل مادفع الكبير للضرب ليس شيئاً سوى أنه تملكته سورة من الغضب

(1) Thorndike " Education ,, Page 202.

يقول مارشال (١) « لقد اقتنع علم الأجرام الحديث ان ضرب الآدمى فى الواقع ليس شيئاً سوى اقرار صريح من المربى بفشله وعجزه . فماذا يقال اذن فى اذلال الأطفال وكسر نفوسهم عند مايضربون وبخاصة متى كان الضارب هم الوالدون وليس غيرهم ؟..... فليس يصح عقلا أن رجلا أو امرأة يضرب فى حالة غير حالة الغضب » والاباء الذين يدعون أنهم يتألمون لضرب أولادهم اكثر من آلام الأطفال انفسهم يغالطون انفسهم فى الواقع لأن هذا نوع من خداع النفس Rationalization ليس غير . يقول مارشال فى هذا ايضا «يضرب الناس أطفالهم لأنهم غاضبون ، ويغضبون اما لأنهم عجزوا عن اكتساب ثقة الأطفال وحبهم أو لأنهم لا يهتمون لاكتساب هذه الملكات التى تساعدهم على تربية أولادهم . ولذلك تراهم يتبعون اسهل السهل . والعصا هى مفتاح ذلك السبيل السهل المعبد »

فالأطفال اذن يضربون لأن الآباء مغضبون أو لأن هؤلاء الآباء لا يعلمون ماذا يفعلون سوى أن ينهالوا بالعصى على ظهور أطفالهم . وبعبارة أوضح تذل نفوس الصغار ويعذبون لسببين اثنين وكلا السببين من اخطاء الوالدين فهم يضربون اما لجهل الاباء أو لقابليتهم للانفعال والاضطراب النفسانى الشديد . يقول ماك كن (٢) « ليست تغرس الاخلاق فى نفوس الأولاد بمبادىء العقاب وقوانينه . . . . . وعلى هذا فيحسن بنا أن نلجأ إلى الوسائل الايجابية فى التربية — تلك الوسائل التى هى اعود الاشياء على التربية والتأديب» /

وليس من ينكر أن الآباء يستطيعون أن يحلوا بعض مشاكلهم بعقاب الأطفال ولكن ليس من ينكر ايضاً أن العقابات البدنية لاتعود بفائدة على الأخلاق . ففى آخر الأمر يتضح أن العقاب يحل بعض معضلات الآباء والمربين . وهذه المشاكل هى فى معظم الأحوال كيف يحملون الاطفال على أن يقوموا ببعض الأمور أو يمتنعوا عن البعض الآخر . أما مشاكل الولد نفسه فيتركها العقاب من غير أن يحاول ايجاد حل مرض لها بل فى الحقيقة يزيدها تعقيداً على تعقيد . فبعد ان

(1) "Parents and Their Problems,, Vol. VIII P. 287—288.

(2) Mac Cunn "The Making of Character,, Page 158.

كانت مشكلته أنه يكذب مثلا تصبح الكذب ومحاولة النجاة من العقاب أو الكذب والخوف من والده . والاثنان من النقائص الاخلاقية

ويجب أن لا ينسى الآباء والمربون عند مايهمون بضرب أطفالهم قول هوبهوس الفيلسوف الانجليزى « نحن لا نقتص من المذنبين لأن القصاص عدل بل لأننا فى الواقع نكرههم أو نخشاهم . ثم نحوك من البغضاء والخوف نظاماً من الاراء والافكار تصور لنا أن آلام المذنبين هى نتيجة طبيعية لذنوبهم كأنه ليس للشخصيات أو التحزبات دخل فى الموضوع بالمرة »

الشوق Interest

لقد يسأل سائل ماذا نفعل إذن لما يكذب الطفل أولما يتعود على سرقة بعض الأشياء الصغيرة أو الكبيرة فى البيت ويبددها او إذا كان شديد الأثرة محباً لنفسه قليل الاكتراث للاشياء ومجرداً من الميول الايجابية الاجتماعية ؟ لقد سلمنا جدلا أننا عرفنا مايجب أن لانفعل ولكن لم يذكر لنا المؤلف ماذا يجب أن نفعل . وبعبارة أخرى يريدنا هذا السائل على أن نكون عمليين أكثر مما كنا يرغب فى أننا نترك النظريات قليلا بعد أن أطلنا فى شرحها بعض الاطالة أو بالحرى يريدنا على أن نأخذ ببعض الحالات الخاصة فنبين ما يمكن أن يعمل فيها

ولكن قبل أن نطاوع السائل فيما يذهب اليه يحسن بنا أن ننظر فى مسألة أخرى لأنها وإن كانت نظرية الى حدما فان لها اتصالا مباشراً بالأمور العملية ثم لها من الحيوية والقوة ما يجعلها من العوامل الأساسية فى بناء الاخلاق وهذه القوة هى « الشوق » . وهو أحد الدوافع النفسية الفعالة وعليه ينبنى كثير من أصول علم النفس التجريبي وخصوصا التجارب التى أجراها واطسون السلوكى Behaviorist . والتى يرى برتراند رسل أنها من خير ما توصل اليه علم النفس الحديث من القواعد والنتائج

لقد خطر للاستاذ ليتلتون مدير كلية ايتون سابقاً أن يعقد مقارنة بين التربية التى تستخدم الضغط والارغام وبين تلك التى تستخدم الشوق فقال « نجد أن أحدها إذ تنجح لابد وأن تكون قد استعانت بالأخرى . » ويقصد بذلك ان نجاح الشوق

فى التربية مثلا متوقف على مقدار مايستعيره من الارغام . ويبنى الاستاذ ليتلتون نظريته على الزعم بان الانسان كثيراً مايضطر لان يخنق رغائبه وأشواقه فى سبيل واجبه . ثم يزعم ان هذا ماسيحدث للطفل فى حياته المقبلة ولامفر له منه ان كان ذا أخلاق فاضلة . ويستخلص من ذلك انه لامفر من استعمال الضغط والارغام فى التربية حتى نعد الاطفال لماسيحصل لهم فى مستقبل حياتهم . فالارغام والاجبار فى نظره من مستلزمات التربية الصحيحة حتى يتعود الطفل ان يكبح جماح شهواته عند ما تتعارض مع واجباته

ولكننا نظن ان هذا الزعم لايقوم على أساس من الواقع لأننا لو أنعمنا النظر فيه لوجدنا انه قائم على زعم فاسد هو الآخر من أساسه الا وهو ان الواجب فى جوهره خارج عن دائرة الرغائب والاشواق . ولسنا نأخذ بهذه النظرية أصلا لاننا نعتقد ان الواجب هو فى الواقع فى دائرة الاشواق والرغائب ويمكن المربين ان يجعلوه كذلك من الاصل . فالفتى الذى يؤدى واجبه لايعدو عن ان يكون قد قام بما تفرضه عليه ميوله ورغائبه . وليس حتما ان يكون مضطراً لذلك اضطراراً اما القطيعة والعدوان اللذان قد يحدثان بين الواجب والرغبة هى فى الواقع قطيعة وعدوان بين رغبتين كل منهما تجذب الفرد لناحية معينة .

ولكى نزيد هذه المسألة ايضاحا دعنا نضرب لذلك مثلا . يريد شخص معلوم ان يذهب الى دار التمثيل ليشهد قصة سمع عنها وأخذت تميل نفسه لمشاهدتها . هذه رغبة أو شوق تتطلب العناية والالتفات ولا يسع الفرد الا ان يسعى الى اشباع تلك الرغبة . فيزمع ان يفعل ويجمع أمره على الذهاب . ولكن بينما هو آخذ فى هذا الامر يعترضه واجب يجب ان يؤديه لانه أيضا يتطلب الاداء فى نفس الوقت . فهذه الحالة لاتعدو عن ان تكون ان هذا الانسان يرغب ويشتاق لان يعمل الامرين فى نفس الوقت . فهو يرغب فى ان يذهب الى الاوبرا . وهو يرغب أيضا فى ان يؤدى واجبه

ويحسن بنا عندهذا الحدأن نذكر انفسنا أن الرغبة ليست شيئاً سوى الاستجابة لاحد الدوافع النفسية ، وتعدد الدوافع النفسية ينتج تعدداً فى الرغائب . فما كان

منها أقوى وأشد نفذ وتغلب . وما كان منها أضعف قهر على امره . وليس معنى هذا أن الرغبة المقهورة تذهب من غير أن تترك اثراً لأن قمع الرغبة اياً كانت ليس امراً سهلا ميسوراً . ولكن هذا لا يطعن فى أن اقواها تطغى على اضعفها فاذا كان هذا الانسان ممن تعلموا أن يربطوا بين رغائبهم وواجباتهم فلا بد وأن يذهب لاداء هذا الواجب ويكون فى هذه الحالة قد استجاب لأقوى الرغائب عنده . وعمل الواجب فى حالته لا يعدو أن يكون اجابة لداعى الرغبة التى هى كما قلنا اشباع للدواعى النفسية ، ومن هذا نرى أن الواجب ليس فى الحقيقة ضرباً من الضغط والارغام كما يزعم الاستاذ ليتلتون فيما نقلناه عنه

فالطفل الذى يرغم ضد رغبته على أن يؤدى واجبا يكون فى الواقع عرضة للافساد لأنه فى هذه الحالة يكون القائمون على امره قد دفعوا اشواقه ورغائبه على أن تتحول عن واجبه . أو بعبارة أخرى يكون هؤلاء المربون قد أقاموا سداً منيعاً بين اشواق الطفل وواجباته . ويصير الواجب فى عرفه شراً ليس منه بد ثم انه سوف يركل هذا الواجب بقدمه عندما يشعر باستقلاله عن مربيه والقوامين عليه . وخير ما يعمل فى مثل هذه الحالة هو أن يأخذ المربون انفسهم على أن يساعدوه ليوجه رغائبه وميوله ناحية الواجب وليس فى اتجاه مضاد له . ثم يتعهدون هذه الاشواق بقواعد عـــلم النفس حتى تعتاد خلايا مخه على مقاومة الميول التى تتعارض مع هذا الواجب

وإذن فليس للضغط أو الارغام ما يجعله صالحاً لبناء الاخلاق الا متى كان فى فى امكان الضغط أن يتحول الى رغبة اثناء نشاط الفرد وسعيه . وهذا ليس من المستحيلات . فقد يحمل الطفل على اتيان امر يصير فيما بعد من تلقاء نفسه رغبة كالحال فى تعلم الموسيقى مثلا حيث يضطره ابواه لأن يعزف على البيانو اضطراراً قد يتحول فى المستقبل الى رغبة وشوق للعزف . نقول ليس هذا مستحيلا ولكنه من الامور القليلة الاحتمال فى معظم النواحى الاخرى

وعلى هذا نستطيع أن نقول فى ختام هذا البحث أن نجاح التربية الأخلاقية يتوقف على الأكثار من الدوافع النفسية لها . أى أن الأشواق والرغائب هى من

أفعل العوامل التى يمكن أن نستعديها على النقائص الاخلاقية . وهذا يظهر لنا أنه الصواب والحق من الوجهة النظرية على أقل تقدير

فاذا كانت التربية الاخلاقية هى كما يقول الاستاذ هل Hill « ليست شيئا سوى تكوين الرغائب والأشواق الأدبية » فقد انفتح طريق التأديب والتربية أمام الوالدين . وقانون علم النفس الذى استخلصه ثورندايك هو من خير القوانين التى تستطيع أن تؤلب كل قوى النفس ضد النقائص الاخلاقية . وهذا القانون يعرف فى علم النفس بقانون « المران اللذيذ » Practice with Satisfaction ومحصله أن كل مران ينتج لذة للكائن الحى من طبعه أن يميل الى الاعادة والتكرار مادام لايجد مقاوماً من البيئة أو من طبيعة الكائن ذاته . وينتج من ذلك أن خير فلسفة للأخلاق هى ما تأسست على الرغبة وليست على الارغام . ويجب أن لايغيب عن بال المربين أن الغرض من التربية ليس حمل الصغار على اتيان أمور بذاتها . بل هو فى الواقع خلق بعض الميول والرغائب التى تجعل الطفل يميل لأن يفعل هذه الأمور من تلقاء نفسه . ونستطيع أن نقول اذن أن الرغبة او الشوق هو من الزم العوامل لبناء الأخلاق

مسائل عمليـة

الكذب

والآن لنعد الى الأمور العملية ان كان مافات ليس عملياً محضاً . ولنحاول أن نطبق مافات على حوادث معينة بذاتها لنرى هل منها عائدة على الأخلاق وهل لها اتصال بحياة الأطفال اليومية أم هى مجرد محاولات منطقية لاتمت للواقع بصلة ولنأخذ الكذب مثلا

ماهو الكذب ؟ هذا هو السؤال الذى يجب ان نستهل به بحثنا لانه على مقدار فهمنا لهذه المسألة يتوقف كثير من صلاح الطرق التى نأخذ بها من عدمه . فان كان الكذب هو الاختلاف بين حقائق الامور فى ذاتها (موضوعيا objectively) وبين وصفنا لها فكلنا يكذب ولا حيلة لنا فى الكذب . والعلم أيضا يكذب ولن يزال يكذب الى ماشاء الله والفلسفة هى الاخرى تكذب ان لم تكن فى الواقع أكثر امعاناً فيه من العلوم

ولكننا نعنى بالكذب عادة محاولة اظهار الامور على غير حقيقتها . أو بعبارة أخرى هو ان يقصد الانسان ان يعطى صورة مغلوطة عن بعض الوقائع وهو يعلم فى نفس الوقت ان تلك الصورة فى الحقيقة مغلوطة . هـذا هو مايقصده العرف فى تحديد معنى الكذب . وعلى أى حال فايضاح الفرق بين الكذب المقصود والغير مقصود ينفعنا فى حالتنا هذه . لان كثيرين من الآباء والمربين لايكلفون أنفسهم مشقة التفريق بين هذين النوعين . ففى رأى أغلبهم ان الولد يكذب فى كل حالة لايتفق قوله فيها مع الحقائق كما يراها غيره أو كما يرونها هم على التخصيص . فهم لايحاولون النظر الى بواطن الامور . وكل اختلاف مع الواقع هو فى نظرهم كذب

يجب على الآباء والمربين بداءة ذى بدء ان يفرقوا بين الجهل بالامور والكذب فقد يجوز ان يكون قول الطفل منطبقا على الحق من وجهة نظره حتى وان كان مغايراً للواقع من وجهة نظر الآخرين . وفى مثل هذه الحالة يكون الطفل صادقا فيما يقول لانه ماهو الحق والصدق ان لم يكن علاقة الآراء بالاشياء فى نظر انسان معين ؟ وعلاقة الشىء بالفكرة هو أيضا من حق الطفل يتصرف فيه الى حد محدود وتبعا لمداركه وقدرته على النفاذ الى ماتحت الظواهر فاذا أصر الآباء والمربون على ان لايسمعوا سوى الصدق والحق فليتطلبوا الصدق والحق من أناس آخرين غير الأطفال فليذهبوا الى الفلاسفة لهـذا الغرض مثلا . واننا نشك فى مقدرة هؤلاء أيضا على اظهار الحقيقة كما هى

ثم على الآباء أيضا ان يفرقوا بين الخيال والكذب الصراح . فالانسان فى دور الطفولة ليس أبعد منه عن الموضوعية . فالدنيا حواليه هى جزء منه . وليس يستطيع ان يميز بين الاشياء المحيطة به وبين شعوره الداخلى . فلم تتعين الحدود بين الحقيقة والخيال فى هذا الدور وكلا الحقيقة والخيـال فى قرارة نفسه شىء واحد . يقول أوجدون (١) « هنالك من الأسباب مايحمل على الظن أن الطفل فى الصغر يعجز عن التمييز بين الادراك والتخيل لأنه لم يقم الحدود بينهما بعد كما هى الحال

(1) Ogden " The Meaning of Psycholgy,, Page 134.

مع الكبار . وهذا التمييز بين الواقع والخيال هو أحد الفروق بين دنيا الأطفال ودنيا البالغين » وعلى هذا فالخيال أو الشعور الداخلى فى نظر الطفل هو حقيقة مستقلة منفصلة عنه . ووصفه لذلك الخيال هو غاية مايصل اليه فى محاولته أن يصف الأمور وصفاً موضوعياً . يقول جرونبرج (١) « يستحيل على الطفل أن يميز بين ماندعوه حقيقة وبين الخيال قبل أن يصل الى الخامسة من عمره . فالى أن تتأكد أنه يستطيع التمييز بين هذين الأمرين لاتعلق اهمية أدبية على قصصه ورواياته » ومع ذلك فكثير من الآباء يجعلون أطفالهم مسئولين أخلاقياً عن تلك القصص والروايات

فيظهر من هذا أنه فى كثير من الأحيان وخصوصاً فى عهد الطفولة لايصح للآباء والمربين أن يتطلبوا من أبنائهم أن يكونوا صادقين فى جميع الأحوال . ليس يحسن بهم أن يخلطوا بين الادراك والاخلاق ، بين الفضائل والذكاء . تقول مارى وود الين (٢) « ليس الصدق عاطفة ، وليس هو غريزة أدبية ، بل هو فى الواقع مجهود عقلى لادراك الأشياء على حقيقتها ، ومجهود آخر للتعبير الدقيق عن هذا الادراك »

ومع ذلك ففى حالات الكذب الصراح لا يجب أن يتعنت الآباء مع أطفالهم فى أمر هم أنفسهم فيه مذنبون . فاذا كنا نكذب بالايمان والشمائل ، ونكذب فى الأمور التافهة بحكم العرف ، فكيف يسوغ لنا أن نحرم على الأولاد ما نحلل لأنفسنا . ليست هذه دعوة الى التسامح مع الاطفال فى الكذب ، ولا نقصد بها تشجيعهم فى هذا بل كل مانرمى اليه هو الحملة على الكذب فى أصله ، الى مهاجمته فى الكبار البالغين قبل الصغار اليافعين . والمقصود من كل هذا هو تحريمه على الكبار بداءة ذى بدء . واصلاح الجماعة قبل اصلاح الطفل . وتنقية البيئة التى نطلب اليه أن يعيش فيها ويبزها فى الأخلاق

أما الدكتور هادفيلد فيذهب الى أكثر من هذا . فهو يزعم أنه يجب على الصبى

(1) Parents and Their Problems ,, Vol IV P. 161
(2) ,, ,, ,, ,, ,, III P. 115

فى بعض الحالات الا يقول الحق أى أنه ليس فقط يحل له ذلك بل يحسن به أن لا يقول الصدق فى مثل تلك الأحوال . ويذهب هادفيلد فى منطقه الى أن الصبى فى بعض أطوار حياته يأخذ نفسه بالمران على الأخلاص للجماعة التى ينتمى اليها وللشلة التى هو أحد أفرادها . فاذا حمل على قول الصدق حتى ما يمس رفاقه منه ، فقد أوذى فى ملكاته الاجتماعية . فيسهل عليه فى مستقبل حياته أن يخون رفاقه وعائلته ووطنه لدوافع ذاتية . ثم يقول هاد فيلد « ينتج من ذلك أن لكل طور من أطوار الحياة معايير خاصة للآداب والأخلاق ... فيحسن بالصبى فى الرابعة عشرة من عمره أن يمتنع عن قول الحق من أن يخون رفاقه واخوانه ... لأن الصبى الذى يتسلل من صفوف شلته فى الثالثة عشرة من عمره يخون مبدأه ووطنه بنذالة فى مستقبل حياته »

ونحن نرى مالهذا الزعم من الصواب . فلخير للصبى أن يسكت عن الحق من أن يخون رفاقه . هذا مقبول . ولكن هذه الوجهة السلبية من الحق توشك أن تكون ايجابياً للكذب فبينها وبين الكذب الصراح خطوة قصيرة . وما أسهل على الطفل حينئذ أن يخطوها فيكون من الكاذبين .

وعلى أى حال لقد فات هذه المدرسة أن الصبى فى مثل هذه السن مطلوب منه أيضاً أن يروض نفسه على الأخلاص للحق وللمبادىء وليس فقط للرفاق والأخدان فكما أنه عرضة لخيانة الجماعة اذا هو عرضها للملام بقول الصدق ، فهو أيضاً عرضة لأن يخون المبادىء والأخلاق اذا هو لم يشتد فى التمسك بها . ثم أن المؤلف لا يفهم فيما يتعارض هذان النوعان من الاخلاص فى أى وقت من الأوقات وهل الاخلاص شيئان وحقيقتان أم شىء واحد وحقيقة واحدة ؟ ثم فيما الخلط بين التسلل والصدق ؟ هل من مستلزمات الصدق أن يهرب الانسان مما تتعرض له جماعته ؟

ومن الجهة الاخرى يحسن بالآباء أن لا يرتكبوا لمثل هذه الامور التافهة كثيراً . كأن يكذب الولد أو يمتنع عن قول الصدق . ولست أقصد بالامر التافه الكذب فى ذاته . فالكذب أمر عظيم . وانما نقصد بذلك فشل الصبى فى بعض

اطوار حياته لأن يأخذ نفسه اخذاً مطلقاً بقول الصدق . فالتفاهة هنا تنصب على عجز الولد وليس على الكذب . ومحصل القول فى هذه النقطة أن الأكاذيب المتقطعة التى يمارسها الأطفال أحياناً ليس من شأنها أو لايجب أن يكون من شأنها أن تحزن الوالدين الحزن كله أو تربكهم على غير طائل . فكل ما يحتاج اليه الصبى للتغلب على هذا الظرف هو قليل من الادراك والفهم وكثير من العطف والعون وليس أفعل من الصبر والاناة والحكمة فى اقتلاع هذه النقيصة من جذورها . ويحسن بالمربين ان لاينسوا ان العجز والفشل الذى ينتاب الاطفال هو من مستلزمات الطبيعة البشرية ومن مميزاتها أيضاً . وبالعجز والفشل ، وبالمداومة على التغلب عليهما وصلت الانسانية الى ماوصلت اليه . وبهما معاً ستصل الى ماهو مقدر لها فى عالم الغيب

بعد هـذه المقدمة فى ماهية الكذب نبحث قليلا فى الدوافع له . قد يكذب الصبى للخوف أو للفائدة التى تعود عليه منه سواء أكانت هذه الفائدة مادية أم معنوية . ويذهب الدكتور بنزيون ليبير فى هذا مذهباً متطرفا . فهو يزعم انليس للكذب سوى احد سببين اثنين لاثالث لهما . فاما انه يكذب لشىء يعود عليه منه أو يظن انه يعود عليه . أو يكذب خوفا من أمر كائن يكون عقاباً أو ماهو فى مثل العقاب . وعلى هذا فمتى انتفى ربح الصبى من الكذب فهو يكذب للخوف . ومتى انتفى الاثنان فلن يكذب مطلقاً . ولا يستطيع ليبير ان يفهم كيف يختار الصبى الكذب اذا تساوى فى نتائجه المقدرة مع الصدق . متى تساوى الامران فليس يعقل ان يجنح الصبى للكذب

وفى الحق ان المؤلف يرى فى هذا المذهب كثيراً من الحق والصواب والمنطق . وعلى أقل تقدير ان مثل هذا الزعم أقرب للفهم والمنطق من مذهب ستانلى هول واخوانه الرجوعيين Recapitulationists الذين يزعمون ان الكذب سنة التطور وهو لازمة من لوازم بعض أطوار الانسانية فى نشوئها

ومحصل نظرية الرجوعيين بالاختصار هو ان الصبى يمثل فى حياته الادوار التى مرت فيها الانسانية . فكما ان هذه قد مرت فى تاريخ نشوئها بأدوار مختلفة من رجل الغاب الذى يسكن على الاشجار ويكمن لفريسته ويضربها بحجر ويأكلها من

غيرطهى . الى انسان الكهوف الذى لم يكن يختلف عن الضوارى فى شىء فهو ينشب اظفاره فى الحيوانات الاخرى . الى دور الرعاة الذين كانوا يخلدون الى سوائمهم يعلفونها ويسمنونها للذبح . الى دور الزراعة حيث استكن الناس الى الارض يفلحونها ويأكلون من ثمارها فكانوا وادعين هادئين . الى دور المدنية هذه التى نعيش فيها الآن . ومن حيث ان الانسان قد مر بكل هذه الاطوار . فهكذا نجد ان طبيعة الوجود تستلزم من الصبى ان يأتى عليه وقت فى طفولته فيعيد ذلك التاريخ فى نشاطه وسلوكه . فيكمن ويقفز . ويختبىء ويظهر . ويكذب ويحتال ويغش ويخدع . كما فعل أسلافنا من عهد ان تميز الانسان عن الحيوانات . ولقد قوى هذا الزعم عند الرجوعيين ماخالوه من ان الجنين فى بطن أمه يعيد أو يحكى تاريخ تطور جسم الانسان . من نبات الى سمك . الى زواحف وطير . الى حيوانات فقرية وثديية الى ان يصير انساناً فى ظرف تسعة شهور

ثم يمعن الرجوعيون فى هذا الزعم إمعاناً شديداً . فيدعوا المربين لأن يتركوا الاطفال يكذبون ويغشون ويخدعون حتى ينفقوا هذا الرأسمال الذى لابد وأن ينفق إما فى الصغر حيث لاضرر منه ولا ضرار . أو فى طور الرجولة حيث تكون اخطاره على المجتمع عظيمة . وكان من رأيهم أنه لايجب أن تكبت هذه الميول أو تقمع لأن ذلك يقتل نمو الفضائل فى الطفل . كما أن قمع أى طور من أطوار حياته فى بطن أمه يودى بحياته . ثم انه كان من رأيهم أيضاً أنه يجب أن لايعاقب الطفل على الكذب لانه فى طبيعة الاشياء ان الاطفال يكذبون . ولا يجب أن يعاقبوا على السرقة أو الدناءة والسفالة لانه لابد وأن يكذبوا ويسرقوا ويتسفلوا ويتدنوا إن لم يكن عاجلا فآجلا . فلماذا لانتركهم وشأنهم فى الحال لنأمن خطر تلك الشرور فى المستقبل ؟

ولكن لحسن حظ الاطفال أن نظرية الرجوعيين هذه لم تجد ما يدعمها من وقائع العلم ومشاهداته فذهبت وشيكا وكفانا الله شرها . فانى لا أخال نظرية أعود على الجماعة البشرية بالضرر من تلك . خصوصاً فيما يختص منها بالفضائل والاخلاق وان كانت نتائجها المادية أو العلمية ليس يترتب عليه شىء كثير فى حياة الانسان . فلسنا إذن نرى للرجوعية حقاً فيما تزعمه أو تذهب اليه فى باب الفضائل والاخلاق .

أما زعم الدكتور ليبير من أن الخوف أو الفائدة هما أس الكذب فاننا نميل إلى تصديقه . والحق اننا لانحجم عن أن نذهب مع ليبير إلى أكثر من منتصف الطريق

فاذا كان للصبى ان يخشى فى الحقيقة أو فى الخيال من عواقب أفعاله فهو قمين بأن يتجنب الصدق. ولمعالجة هـذا يجب ان يكون للصبى من التأكيدات العملية وليست اللفظية أو الكلامية فقط مايجعله ان يوقن ان مصيره فى يد احباب يعطفون عليـه ويسعون وراء خيره . وليس فى يد قضاة أو منفذين للعقابات ومقتصين للذنوب . يجب ان يستقرىء من تاريخ حياته العملية أن اخطاءه ليست مما يدارى عن والديه ، وليست مما يتخذ سبباً لارهابه وارعابه . بل هى من الامور التى تستدعى الاصلاح فى كثير من العطف والحدب والحب . وانها مما تحل بالممارسة بينه وبين والديه . وليست مما يستدعى المحاكمة ونصب الموازين ، تقول الاوتلوك فى احدى افتتاحياتها « ان ثقة الاطفال بوالديهم هى المفتاح الذى يفتح مغاليق نفوسهم لأولئك الوالدين »

حدث مرة أن طفلين احدهما فى السادسة والآخر فى السابعة من عمرهما غابا عن منزليهما غيبة طويلة لم يعتاداها فيما سبق . فسبب ذلك لعائلتيهما كثيراً من القلق والحزن والنواح . وحدث ان المؤلف كان من شهود تلك الحادثة . فرأى عجبا عند عودة الطفلين . رأى أن عاطفة الامومة فى إحدى الحالتين انقلبت الى عاطفة فظة غليظة . انقلبت الى غضب ونقمة . واما فى الحالة الاخرى فقد اخذ العقل بقيادها . واستخدمها فيما يعود على الصبى والعائلة جميعاً

فعند رجوع الولدين سألت احدى الوالدتين ابنها عن سبب غيابه فكذب وانتحل المبررات لنفسه . وزعم انه لم يبعد عن البيت بعيداً وعلى هذا فتناولته أمه بالعقاب البدنى . ففى الظاهر كان عقابه للكذب الذى اقترفه . هكذا كانت العلة الظاهرة للأم عندما انهالت عليه . فلم تكن تدرى لذلك سبباً من قرارات نفسها غفلت عنه ولم تستطع ان تستقصيه الى آخر حدود الاستقصاء . اما السبب الحقيقى الباطنى الذى خفى عليها والذى لم تكن تدرى بوجوده فهو ميلها النفسانى للانتقام من ابنها على ما حملها من القلق والبكاء . وبعبارة اخرى وفى آخر الامر نرى ان هذه الام اطلقت لعواطفها العنان وصرفتها فى ايلام ابنها . فاراحت نفسها وسرى عنها

وبمعنى آخر لقد حلت تلك الام معضلتها على حساب ولدها .تلك المعضلة التى نجمت عن طول احتباس العواطف فى صدرها . فهى فعلت مافعلت لتريح نفسها فى الواقع ونفس الامر

واما الصبى الثانى فكان حظه خيرا من هذا . لأنه عندما علمت الام بأوبته سالماً كفكفت دموعها وتكلفت التظاهر بمظهر طبيعى . ولم تنس ان تهش لابنها كعادتها معه . ويحسن بنا فى هذه الحالة ان نورد الحوار الذى دار بين تلك الام وولدها من غير شرح كثير لانه لايحتاج الى الشرح . دخل الولد متهللا . وبادر امه من دون أن تسأله فقال . « أمى انا الآن عائد من البلدة الفلانية (وهى قرية تبعدعن بلدته بمسيرة ساعتين أو ثلاث)

فاجابت الام بحرارة قائلة « حسنا جداً يابنى . والله إنك رجل صغير . ويحق لامك ان تفخر بك . هل سررت من تلك النزهة الجميلة ؟ »

« أى نعم ياأمى . سررت السرور كله . »

« هذا يسرنى أيضاً يابنى . فليس احب الى من ان تستمتع بالحياة الى آخر حدود الاستمتاع . أما من جهتى انا يابنى فقد كان يومى هذا يوماً عصيباً »

فاقترب الابن الى أمه الى ان لاصق خده خدها وسأل فى عطف كثير « ولم ذلك يا اماه »

ويلاحظ القارىء هنا ان هذا بالضبط هو غرض الحوار كما رسمته الأم . وان هذه هى النقطة التى سددت اليها الحديث من أوله . وعلى هذا اجابت

« لأنى لم اكن أدرى اين مستقرك . وهل عرض لك مكروه فى يومك هذا . فقلبى يابنى يقلق ويكتئب اذا ما غبت عنى من دون ان اعرف الى أين انت ذاهب . وعلى هذا فقد انشغلت لأجلك طول يومى »

فما كان من الولد الا ان قال « انى آسف كل الأسف يا اماه. حقاً لقد فاتنى هذا الأمر ولم اتنبه اليه . وهذه غلطتى ياامى . وانى اعدك وعداً صادقاً ان لا أذهب الى أى مكان بعيد قبل ان اطلعك مقدماً على نوايای »

ليس يخفى ان طريقة كهذه توفر على الوالدين كثيراً من المشاق والمتاعب . واهم من ذلك فانها اعود على اخلاق الأولاد ونفسياتهم من جميع ماعداها من الطرق

ولكنها تحتاج الى قوة فى ضبط النفس . ومن من الوالدين يستطيع ان يتحكم فى شعوره وعواطفه كتحكم تلك الأم ؟ وفى الحق لست أفهم كيف يتعرض صبى كهذا وأمه كما رأينا الى نقائص الكذب

الخيانة Dishonesty

الخيانة كالكذب فى عهد الطفولة من وجهة انها مسألة ذكاء وادراك وليست مسألة أدبية . وعلى هذا فكثير مايخطىء المربون اذ يعتبرونها مسألة اخلاقية ففى هذا الدور يتخيل الطفل ان كل شىء ملك له . وما عليه الا ان يمدد يده ويستحوز عليه . تقول مارى هارمون ويكس « يلزمنا مجهود فكرى كبير لكى نعلم ان الأمانة من ضرورات الاجتماع ومطالبه » وحتى فى بعض الحالات معنا نحن البالغين يصعب علينا ان نميز بين الخيانة والأمانة من الوجهة المنطقية او العقلية . فكثير مايكون النزاع بين أمانتين . كما ان الحق وسطا بين حقين . وكثير مانضل الطريق لتشعب المسالك أمامنا فى مثل هذه القضايا العقلية والأدبية

فالأمانة من وجهتها العقلية هى مسألة يجب ان نساعد الأطفال على فهمها حق الفهم . وقبل ان يوقن الوالدون ان المعضلة ليست فى المستوى العقلى والفكرى لايحسن بهم ان يعالجوها على انها مسألة اخلاقية . فليس اضر على الاطفال فى معاملتهم من الخلط بين الأمور العقلية والأمور الادبية . فما يعجزون عنه من ناحية العقل يحتاجون فيه الى الشرح والتفهيم وما يقصرون فيه من الوجهة الاخلاقية يحتاجون فيه الى المران والممارسة وليس الى الشدة او الغلظة

ومن الجهة الاخلاقية ليس ينتج ان يزعم المربون ان الوعظ والنصح والكلام هى كل مايطلب اليهم ان يفعلوه . ويؤسفنا ان نرى ان الكلام او العقاب يكادان ان يكونا السبيلين الوحيدين فى التربية والأخلاق عندنا . وفيما عدا ذلك يكاد الوالدون ان لا يجدوا الى الأخلاق سبيلا . والحال انه يجب ان يفهم الصبى من خبرته الشخصية ان الأمانة من مستلزمات الجماعة، يجب له ان يتعلم بالمران والخبرة ان حقوقه مقدسة . وان الحال كذلك مع ماهو من حق الآخرين . ففى الاسرة التى يكون فيها الصبى قد شب على ان حقوقه مصونة لايعتدى عليها أحد . واختبر

هذا بالفعل فى سلوك الآخرين بازاء حقوقه يصعب عليه جداً ان تسول له نفسه فيمدد يده لما ليس له فيه حق . وخصوصاً اذا كانت كل حاجياته مقضية فى حدود العقل والمنطق

حدث ان وجد الصبي الذى روينا قصته فيما سبق قطعة من ذات القرشين فى الطريق . فتناول القطعة وقلبها وردها الى مكانها من الشارع ومضى الى سبيله . وبعد فترة طويلة من الزمن كان يروى الحادثة لأمه فسألته عما اذا كان احضرها فقال « كلا . كيف آخذها ياأمى وهى ليست ملكا لى . لا لقد تركتها فى موضعها » فكان حوار لذيذ بين الأم وولدها انتهى على ان فهم الصبى ان الواجب كان يقضى بأخذها ووضعها فى مكان امين حتى ترد لصاحبها عند ظهوره . وفعلا رجع الصبى ووجدها فى مكانها وأخذها . وبعد ساعات وجد صاحبها فردها اليه من تلقاء نفسه

لقد لمحنا فيما سبق انه من حق الاطفال أن يحصلوا على كل مايرغبون فيه متى كان ذلك فى حدود العقل والمنطق ومتى كان مستطاعاً للعائلة من كل الوجوه وليس ثمة ضرر منه يعود على الصبى . واننا نعلم أن مثل هذا الرأى يستجلب كثيراً من النقد . ولكن المؤلف يصرح انه ثائر على التقييدات الكثيرة التى يحوط بها الوالدون أولادهم فيما يجدى ومالا يجدى . فلست تزور عائلة من غير أن ترى تلك القيود الكثيرة التى تحد من حركة الطفل ونشاطه لغير سبب ظاهر . فتارة يوبخ لانه مد يده لهذا الشيء . وأخرى ينتهر لان نفسه حدثته أن يتناول ذلك الشيء تقليباً وفحصاً . وأخرى لانه هم بشيء آخر . الحق أن مثل هذه الاوامر والنواهى تتخطى حدودها فى معظم الحالات وتدفع الطفل على أن يصل إلى أغراضه فى غفلة من مربيه أو القوامين عليه . علاوة على أن مثل هذا المسلك يترك فى نفسه أثاراً نفسية غير مرغوب فيها من الوجهة الاجتماعية والاخلاقية . فتشتد فيه الرغبة . وتلحف عليه التجربة إلى درجة يعود معها عاجزاً عن المقاومة والامتناع فيسقط ويتكرر سقوطه حيث لم يكن ثمة داع لكل هذه التجارب القاسية

ولذلك فاننا نذهب إلى أن للطفل أن يحصل على مايريده بشرط أن يكون ذلك فى حدود العقل والحكمة . فاذا تبين للوالدين بعد إمعان الروية والتفكير العميق أنه

لايجب أن يستجاب له فليكن ذلك قاطعا مانعا . ثم أهم من ذلك يجب أن نشرح له الاسباب شرحاً مستفيضا مدعماً ببراهين يقبلها عقله وتسعها مداركه ويتقبلها طائعاً مختاراً . ثم علاوة على ذلك يجب أن يجنبوه للتجربة القاسية التى ليس له بها قبل . أو بعبارة أخرى يجب أن يحموه من نفسه فلا يخلون بينه وبين تلك النفس

اننا لانذكر أن مثل هذا المسلك شاق و يتطلب كثيراً من الزمن والتضحيات . ولكن ماقيمة الزمن والتضحيات إن لم يبذلا فى تغيير الدنيا من أساساتها ؟ فالرغبات قوية قاهرة وتستلزم من الوالدين إرادة وصبراً أقوى ليحولوها إلى ماينفع الصبى ويعود على أخلاقه . يقول الاستاذ ديوى « من طبيعة الرغبات انها قوية وملحفة . ومتى وقفت فى سبيلها رغبات الآخرين ومطاليبهم اندفعت إلى أعماق النفس لتسير فى مسارب خفية مستترة . . . . . وينتج من ذلك أحد أمرين . أما الثورة العلنية. أو التحايل على خداع الآخرين » وهذا فى الواقع مايدعونا الى أن نطلب إلى الوالدين أن يكونوا معقولين فى أوامرهم ونواهيهم . لا بل قد نطلب اليهم أن يكونوا متسامحين قليلا فى النواهى والاوامر على السواء

غريزة الخوف

يقول الاستاذ واطسون السلوكى (Behaviorist) « قيل ان الأطفال يخشون الظلام بالغريزة . ومع اننا نتحرز جداً فى رأينا هذا الذى سوف نرتأيه فى هذه الغريزة الا اننا نقول اننا لم نستطع ان نصل فى أبحاثنا الى مايدعم هذا الرأى فعند ما تظهر مثل هذه العوارض على الاطفال نميل الى القول ان أسبابها بعيدة عن ان تكون فطرية . يجب ان ننظر الى ظهور الخوف فى الطفل على انه مكتسب بفعل قانون الارتباط الشرطى »

وفى كتابه الذى ظهر بعد هذا يجزم واطسون ويقطع ان الخوف اكتسابى وليس طبيعياً أو فطرياً

واما نحن فلسنا فى مركز يسمح لنا ان نزعم ان الخوف غريزة . وذلك لأننا نميل فى الواقع الى مذهب السلوكيين فى هذا الامر . فالخوف فى نظرنا اكتسابى بفعل قوانين النفس . ولكن كثيرين من علماء النفس يزعمون بخلاف ذلك . وعلى

أى حال ليس هذا مكان البحث فى هذا الموضوع الذى هو من اختصاص كتب علم النفس . ويكفى ان نقول هنا ان واطسون اجرى كثيراً من التجارب على الأطفال فلم يجد اثراً يدل على ان الخوف غريزى وأما من الوجهة العملية فيحسن بالوالدين والمربين ان يدرجوا على الزعم انه اكتسابى . وان ليس من طبيعة الطفل العادى ان يخاف امراً . او على أقل تقدير انه يجب عليه وينتظر منه ان لا يخاف شيئاً . « فليس للكائن الانسانى نوع طبيعى معلوم من الخوف » كما يقول دورسيه

فلو فعل الوالدون هكذا لاغنوا انفسهم عن كثير من الاتعاب التى لا طائل تحتها ولوفروا على اطفالهم كثيرا من النقائص الأخلاقية التى تنجم عن الخوف وفى الحق لقد وجد المؤلف فى مشاهداته ان الوالدين فى أغلب الاحيان يأخذون عن غير قصد منهم بالطبع ان يغرسوا جراثيم الخوف فى نفوس اطفالهم . ولما تكبر تلك الجرثومة وتتحكم فى مصير الأطفال ينزعج الآباء لها ويصيحون قائلين « ها كم الطبيعة وها كم آثارها . من منا يستطيع للطبيعة دفعاً ؟ ان الخوف غريزة كامنة فى نفوس اطفالنا . ونحن نعجز عن ان نجد لها دواء » ولا يدرى هؤلاء ان الخوف فى الواقع من غرس أيديهم فى معظم الحالات . وانهم هم دون الطبيعة مسئولون عن وجوده فى نفوس الاطفال . ينسون ان سببه فى الوسط والبيئة وليس فى الفطرة والطبيعة . فاذ نطلب الى الوالدين ان يقاوموا الخوف ، لانطلب اليهم ان يقاوموا الطبيعة . بل بالحرى ان يهذبوا البيئة ويغيروا من عناصرها مايغرس الخوف فى الأطفال

والبيت هو البيئة التى تنمو فيها جراثيم الخوف . ونقصد بالبيت فى هذه الحالة كل ما يلابس الطفل فى حياته الأولى ويتصل به من انسان وحيوان واشياء . فالخوف من الظلام مثلا ليس شيئاً فى طبيعته من نحوها . وما هو الا اتجاه فكرى جديد نحو الظلام . ولا بد وان يكون قد اكتسب هذا الاتجاه فى طور من أطوار حياته وهذه الاتجاهات الفكرية هى مما يحدد العلاقات بين الفرد وما يخشاه او مايخافه

حدث مرة ان مربية قالت لطفل له من العمر عامان وكانت تقوم على رعايته « اف للظلمة المخيفة ... ظلام موحش » فما كان من الطفل الا انه انتفض والتصق بها وقال ... « عتمة وحشة » واكتشف والده بالصدفة هذا الاتجاه الجديد فى شعوره

نحو الظلام ويقول الاب — وقد كان من المطلعين على أصول التربية الحديثة — انه صرف عشر ليال فى مجهود مستمر لانتزاع ذلك الاتجاه الجديد فى شعور ولده . فكان يأخذه كل ليلة الى قاعة مظلمة ويكرر على مسامعه القول « ظلام مريح للعين ظلام لطيف . ظلام بديع » ثم يعطى لابنه فى نفس الوقت بعضاً من الحلوى وهكذا استخدم ذلك الاب قوانين علم النفس فى مقاومة الخوف . ولقد نجح فى ذلك نجاحاً تاماً

ألمحنا فيما سبق إلى إمكانية التحكم فى البيئة . وهذا بالطبع ممكن إلى حد كبير . إلا أنه توجد أمور خارجة عن طوق المربين وهى فى نفس الوقت تسدد مجرى حياة الاطفال فى كثير من الاحيان . ومن هذه العوامل الاصوات فى الشوارع وخصوصاً متى كانت مزعجة وباغتة . ثم الايحاء من الآخرين خصوصاً متى كانوا أكبر من الطفل . أو وقوع حادثة مرعبة أو مؤلمة للطفل . كل هذه من العوامل التى تتحكم فى نفسية الاطفال إلى مدى بعيد الغور . وكل هذه بالطبع يصعب على الوالدين والمربين التحكم فيها وتوجيهها إلى وجهة معلومة قبل حدوثها . وهذه كما قلنا من الامور التى تبث الخوف فى نفوس الاولاد

فاذا ما تركت جرثومة الخوف لنفسها نمت وتأصلت وصارت عادة اوخاصية من خواص الشخصية الملازمة لها فى كل اطوار الحياة ولكن لحسن الحظ استطاع علم النفس ان يكتشف علاجاً ناجعاً لكل هذه الحالات بشرط ان يكون القائم بامر هذا العلاج على شىء كثير من الفطنة والذكاء وله من الذوق السليم والصبر والاناة ما يعاونه على معالجة هذه الحالات بتطبيق القانون السالف الذكر . وبه قد عالج بافلوف الروسى بعض الحيوانات . وواطسون بعض الاطفال فكان له من الاثر والنتائج ما وضعه فى صف القوانين الطبيعية

وعلى ذكر واطسون نقول انه استطاع ان يوجد الخوف فى نفوس الاطفال من الظلام والاصوات المزعجة وبعض الحيوانات وما أشبه . ثم استطاع فى نفس الوقت ان ينتزع جرثومة هذا الخوف انتزاعا فلم يعد لها اثر يدل عليها . يقول دورسيه فى هذا الصدد « يمكننا اقتلاع الخوف تدريجيا بفعل قانون الارتباط الشرطى وابدال عادات الخوف من الاشخاص والاشياء بعادات اخرى لاشأن لها بالخوف »

لسنا نتوى ان نضع برنامجاً مفصلا للآباء والمربين فى هذا الامر او فى هذا المكان . وانما نقول ان مثل هذا البرنامج واضح ظاهر . وكل مايلزم له هو قليل من الصبر والاناة والدراية والذوق السليم للتغلب على الخوف . وقد شاهد المؤلف شخصياً نجاح بعض الوالدين فى هذا الامر. وعلى كل حال نظن انه يحسن بالآباء من مبدأ الامر ان يحرصوا على ان لا تكون ثمة فرصة للخوف لينغرس . واما ان ظهرت عوارضه فعليهم ان لا يثدوه او يكبتوه . لان وأده اصل لكثير من الامراض العصبية والخلقية بل يجب معالجته فى وضح النهار. وليس يصح تجاهله او انكاره بحال من الاحوال

من شأن التهديد ان ينتج الخوف . بل نكاد نجزم ان ليس له سوى هذه النتيجة وان غرض المربى عندما يلجأ اليه هو ان يخيف الطفل من نتائج سلوكه . وعلى هذا فالتهديد اصلا ليس من عوامل بناء الاخلاق . ولا نعدو الصواب اذ نقول انه من عوامل هدمها . لاننا نرى انه اصل الخوف . والخوف كما بينا من اعدى عداة المبادىء . فيجب والحالة هذه ان نبين للطفل النتائج المحتملة لتصرفه من غير ان نحمله بالخوف او بالتهديد على تركها . من حق الصبى ان يرى لنفسه لماذا يطالب بترك هذا وبفعل ذاك. ويجب أن يترك ما يتركه ويعمل ما يعمله بدواع اخرى غير هذا . كأن تكون هذه الدواعى حبه للجماعة التى يعيش فيها ومعاونته لها فى مهام حياتها . فمتى اخطأ تنتهز هذه الفرصة لتقويم اخلاقه وليس لتخويفه وايلامه . وفى كلا الحالين . فى الخطأ والصواب يلزم ان يكون الغرض من معالجة الصبى ترقية اخلاقه وليس شيئا آخر

الاثرة

محبة الذات أو التجرد من الصفات الاجتماعية من الامور التى اعتبرها كثيرون من علماء النفس غريزية أو طبيعية موروثة . ثم ان بعضهم اعتبر أن الخصائص الاجتماعية للانسان من الامور المكتسبة التى يجب غرسها فى نفسه بالتربية والتعليم

وقد يكون هذا حقاً وصدقا إلا انه حق وصدق أيضاً ان للطفل من الخصائص

الاجتماعية الطبيعية ماله من الغرائز الفردية فان كان أحدهما فطريا فالآخر كذلك.

وعلى أى حال فلهذه المسائل أيضاً وجهها العقلى الظاهر. فالطفل محب لنفسه ليس لانه لايهتم للآخرين من الاصل بل لانه لايدرى لهم وجوداً. فحاجاتهم ورغائبهم ليست مفهومة لديه، ولا يشعر بها. فالكون كله فى عرف الطفل يدور حول نفسه. وليس ذلك لانه محب لنفسه بل لان تلك النفس من وجهة نظره هى كل مافى الكون. فهو الكون. والكون هو. وليس بين الاثنين من فارق. فاهتمام الفرد إذن متوقف إلى حد كبير على مقدار معلوماته ومعارفه. ونلاحظ ذلك فى الفلاح الغير متعلم. فان اهتمامه يضيق أفقه جداً إلى أن يكاد يكون أثرة وفردية متعنتة ذلك ليس لان طبيعته تتطلب منه هذا الامر. بل لانه لايعلم ولا يدرى عن الدنيا كثيراً

يأتى على الاطفال وقت فيه تكون كل الشخصيات الاخرى بعيدة عن متناول اختباراتهم الشخصية. وكلما تقوت أفهامهم وارتقت حاسياتهم ومشاعرهم كلما هم صاروا أقدر على التخلق بالميول الاجتماعية. وصارت عقولهم غيرية فى تفكيرها واتجاهاتها. بشرط أن يكون ما أختبروه فى الحياة مما يساعد على هذه الميول. يقول الاستاذ وايجال «ان ضئولة اختبارات الطفل بالنسبة للكبار تجعله يعجز أكثر منهم عن أن يعرف حاجيات الغير ورغائبهم وعن أن يراها بعين خياله .... وللاطفال أيضاً من الغرائز والميول مايدفعهم إلى فعل الامور التى تنفع الآخرين بغض النظر عن فائدتها لهم»

اذن فما كان من الخبرة والمران من نوع معلوم فهو مما يساعد الاطفال على تكوين الميول الاجتماعية. فاذا خبر الطفل فى عائلته هذه الميول. واذا وجد ان لابيه وامه من الخصائص الغيرية قدر بارز فاغلب الظن انه يقلدهما ويسمح لتلك الميول بعينها ان تنغرس فيه بدورها ثم اذا ايقن بحب والديه له واذا اكتشف استعدادهما لخدمته وأكثر من ذلك اذا سمح له ان يضطلع ببعض المسئوليات الصغيرة فى سبيل عائلته فالانسان يعجز والحق يقال عن ان يرى كيف لا يكون مثل هذا الطفل اجتماعياً فى ميوله. نقول انه اذا كان له من الغرائز والميول الاجتماعية الفطرية ما لكل مولود آدمى كما يؤكد علماء النفس. واذا كانت تلك الغرائز والميول

تجد متسعاً لها فى البيت لتتصرف الى نشاط ومران وخبرة، واذا كانت نتيجة ذلك النشاط الاجتماعى ليست مؤلمة للطفل، نقول انه متى توافرت كل هذه الشروط فلسنا نرى هناك مجالا له ليصير فردياً محباً لنفسه

وفى التربية الاجتماعية للاطفال يجب ان يشعروا ان لمسؤلياتهم نحو العائلة اثراً فى تقدمها ورفاهتها. فليس افعل فى مثل هذه التربية من الشعور بفائدة ما يؤديه الفرد للجماعة من الخدمات والمسئوليات. ومن حيث ان المربين أخذوا فى هذا العصر يؤكدون حقوق الطفل وحسنا يفعلون. فيحسن بنا ان لاننسى أهمية الدور الذى تلعبه الواجبات أيضاً يجب ان نفعل هذا ولا نهمل تلك. ويحسن بنا ان نذكر انفسنا ان المسئوليات وليست الحقوق هى التى تخلق الرجال. أظن انه ليس من المتعذر ان نجعل الصبى يعرف بالخبرة والمران ان « ليس لاى انسان حق فى الحصول على جميع حقوقه » كما قال فليبس بروكس. ولقد قال ريتشارد مورس هودج ان « اخلاق الفرد هى نتيجة مباشرة لمجهوداته فى خدمة عائلته »

النمو العقلى للطفل

تميل التجارب التى اجريت لاختبار الذكاء الى ان تدل على ان معدله فى الفرد هو معدل ذكاء صبى فى الرابعة عشرة الى السادسة عشرة من عمره . او بمعنى آخر ان ذكاء ملايين الناس هذه لايعدو فى معظم الأحيان ذكاء صبى فى السادسة عشرة من عمره وهناك حقيقة أخرى اتفق عليها علماء النفس : وهى ان المعلومات والمعارف هى جزء من الذكاء بمعنى انك اذا اردت ان تختبر ذكاء انسان معين فعليك ان تختبره فى معارفه ومعلوماته العامة

فاذا كان هذان الأمران صحيحين — ونحن نميل الى الأخذ بهما — فمسئولية الوالدين فى تطور ذكاء اطفالهم جسيمة، مسئوليتهم جسيمة لأنهم اولا يورثون الاطفال استعداداتهم الطبيعية للذكاء. وثانياً لأنهم يتعهدون هذا الذكاء بالمعالجة لينمو ويشتد وخصوصاً متى افترضنا ان الصبى يقضى فى احضان عائلته الثمانية عشرة سنة الاولى من سنى حياته او مايقرب من ذلك. فالوالدون اذن يعطون اطفالهم ذلك الذكاء عن طريق التوارث الطبيعى، ثم هم ايضاً يتعهدون ذلك

الميراث الى ان يبلغ اقصى مبلغه . اذن فالعائلة هى التى تصطنع الصبى . نحن لا ننكر فعل العوامل الأخرى ، ولكن الأسرة هى أهم تلك العوامل على الاطلاق . وعلى هذا فيحسن بالوالدين ان يهتموا الاهتمام كله للحقائق التى تصل الى الأطفال ، يجب ان يروا لأنفسهم ان تكون تلك المعلومات والحقائق من النوع المطلوب ، وان تكون بالقدر الكافى

للاطفال نهمة للحقائق والمعلومات لاتشبع ، فهم يريدون ان يعرفوا كل شىء . ولهم عذرهم فى ذلك لان لا خبرة لهم سابقة بالدنيا وما فيها . وهم حين يسألون لاعهد لهم بما عنه يسألون . وقد يكون هذا أول عهدهم بالاتصال بالاشياء والحوادث حواليهم . والاشياء والحوادث تربك عقولهم وتحيرها ، لان كل شىء يجبههم لاول مرة هو لغز معمى عليهم لا يدرون له حلا . فمن واجب الوالدين فى مثل هذه الحالات ان يسدوا نهمتهم لتعرف الاشياء ، فالمعرفة هى غذاء عقولهم ومن دونها تجدب عقولهم وتقفر

فمن وجهة التطور الطبيعى ليس للسلف من وظيفة سوى تدريب الخلف واطلاعه على ميراث النوع . ثم يمر ذلك السلف من الوجود . وهذا هو الواقع مع بعض الحيوانات الدنيا . فانها تقوم بهذه المأمورية حرفياً ثم تختفى من الوجود . أى انها تنتج صغارها ثم تموت ، فكأن ليس لها غاية من الحياة سوى اعداد جيل آخر لحفظ النوع . فهى تبلغ رسالة الوجود ثم تذهب لحال سبيلها

ومن الامثلة على ذلك ثعابين البحر . فهى تسافر مئآت من الاميال فى الانهار لتصل الى البحر . وهنالك تضع بيضها ثم تموت . ومنها أيضا سمك سليمان الذى يسافر بالعكس ، اى من البحر الى الانهار ، هنالك يضع بيضه أيضا ثم يموت

فنكاد نقول ان ليس لهذين النوعين من الاحياء من عمل سوى ايداع بيضها فى البيئة الملائمة ، ثم تزول من عالم الوجود . اما فى حالتنا نحن الآدميين فالطبيعة تتركنا قليلا ، لان مسئولياتنا لا تنتهى بالتوالد فقط كما هى الحال مع انواع كثيرة من الاحياء . فنحن لنا ميراث اجتماعى . ويظهر ان الطبيعة تريدنا على ان نتركه لأولادنا .

قد يظهر ان هذا ضرب من الايمان بالفلسفة المادية التى لا نؤمن بها . ولكن هذا هو الواقع الى حد محدود

ومع كل ذلك يفشل الاباء فى بلادنا فشلا مريعاً فى الاضطلاع بهذه الواجبات . فهم يتركون اولادهم يهلكون من الوجهة العقلية . واظهر برهان على هذا الترك ضئولة المعلومات الجنسية عند اولادنا . فهم لايدرون شيئاً عن خصائصهم الجنسية . ولكن يحسن بنا ان نترك هذا الامر الآن لنعود اليه فى فصل مستقل . اما من وجهة المعلومات العامة فقد اهمل الوالدون فى تدريب عقول اولادهم اهمالا يوشك ان يكون طامة عليهم . فكثير منهم يتبرمون بأسئلة ابنائهم ويتضايقون . كأن للاطفال معيناً آخر يستقون منه تلك المعلومات . الحق انه لمحزن جداً ان نرى ان كثيرين من الاطفال يتركون لمحض الخيال للتكهن بطبيعة الاشياء التى يتصلون بها اول اتصال . وكثيراً مايكونون اراء ونظريات فى الظواهر والحوادث ابعد ما تكون عن حقيقة الاشياء وذلك لأن تبرم الوالدين بهم قد وقف حاجزاً بينهم وبين تلك الحقائق

يكاد الانسان فى الواقع ان يجزم انه ليس احوج للفطنة والذكاء ولتعهدهما من بعض الوالدين انفسهم . ويكاد الانسان ان يلمس السبب الذى دفع روبنسون لان يقول فى كتابه انه لاخلاص لعالمنا هذا من غير تعهد لذكاء الناس عامة . وفى الحق اننا فى حالتنا الراهنة هذه — فى القيام على شئون أطفالنا العقلية — لسنا أحوج الى شىء أكثر من حاجتنا الى الذكاء ، أو على أقل تقدير الى الذوق السليم

الوجهة السلبية للاخلاق

فى المجهودات التى يبذلها الآباء فى تعهد أخلاق أطفالهم يحسن بهم ان لايتكئوا جداً على وجهتها السلبية . أى ان تكون الدوافع للاخلاق سلبية محضة . فمثلا لايحسن بهم اذ يطلبون الى أطفالهم ان يقولوا الصدق ان يطلبوا اليهم ذلك لان الكذب ردىء فقط . أو ان يكونوا أمناء فى معاملاتهم لان الخيانة بغيضة . أو ان يكونوا شجعان لأن الجبن رذيلة . أو يكونوا اجتماعيين لان الفردية مرذولة فقط لايصح للآباء ان يحضوا ابنائهم على الفضيلة فى مجموعها لأن الرذيلة شر فقط . نقول ذلك ونحن نعلم ان هذا حق لامرية فيه . نحن نوقن ان الرذيلة شر وان الفضيلة خير ولسنا نتردد فى ذلك . وانما

ماتدعو اليه هوانه لايجب ان يكون الدافع على الفضيلة ليس شيئاً سوى قبح الرذيلة . يجب ان لا يكون قبح الرذيلة هو العامل الاولى والاساسى الذى يدفعنا الى التمسك بالفضيلة بل يجب ان يكون جمال الفضيلة نفسها هو العامل الاول والمهم فى تمسك الناس بها

يجب ان يتعلم الاطفال ان الصدق والامانة والميول الاجتماعية هى خير لذاتها بغض النظر عن قبح اضدادها . يجب ان يرغب الاطفال فى هذه الفضائل لذواتها وليس لان ما عداها شر . وبعبارة اخرى يجب ان تكون الدواعى للفضيلة ايجابية فيكون الدافع لنا على التمسك بالحق حبنا للحق ذاته وليست كراهيتنا للكذب . ولقد قال سبينوزا فى كتابه عن الاخلاق ان اى شىء يستطيع الانسان تركه لانه ردىء يستطيع ان يتركه ايضا لأن شيئا آخر افضل منه . او بمعنى آخر . اذا كنا نستطيع ان نأى بجانبنا عن الرذيلة لانها شر نستطيع ان نعمل نفس الامر لأن الفضيلة خير قال وليام جيمس فى هذا الصدد . « ان من يبنى حياته على كلمة (لا) . ومن يقول الحق لأن الكذب شر . ومن يظل فى صراع مستمر مع ميوله الوضيعة لهو ادنى حالا ومركزاً منه فيما لو تملكته محبة الحق والشرف بطريقة موجبة . وفيما لو حلقت نفسه فوق التجارب المتنوعة »